تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خضعت الأعناقُ لكبريائه، وتحَيَّرت الأبصارُ من مجده وعلائه، المقدَّس عن الأنداد والأضداد والشركاء، المنـــزَّه عن الأشباه والأقران والنُظراء. هو الذي أرسل رسلا لإصلاح الورى، ونجّى كلٌّ مَن قفا أثرهم واقتدى، واختار من اختار مَهْيَعَهم وتَبعَهم وما انثنى، فرضِي عنه وثَنَى. والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، محمدٍ المصطفى الذي هو سيد قوم انكسرت إراداتهم البشرية، وأُزيلت حركاتهم الطبعية، وجرَتْ في بواطنهم الأبحر الروحانية، ونفخ الله فيهم روحه ووالى وصافى. هو إمامُ مَصاليت الله الذين خيَّبوا شيطانا ذا المكائد، حتى أخفق إخفاقَ الصائد، وهو الذي كفَّ عن العَيث والنَّـــزْء ذيبًا أكَل غنم أنبياء بني إسرائيل، ونَسَأَ إلى الحق وعصَم وهَدَى، فالسلام على هذا الجَرِيّ البطل المظفَّر في الأولى والأخرى.

أما بعد.. فاعلم أرشدك الله تعالى أن هذا الكتاب بُلْغةٌ لكل من أراد أن يسلك في حدائق فاتحة الكتاب، ويعلم حقائق نِكاته وشاجِنةَ معارفه على نهج الصواب. وكل ما أودعتُه من درر البيان، فإني تفردتُ به من مواهب الله الرحمن، وفُهِّمتُ من المُلهِمِ المنّان، وليس

فيه شيء من لُفاظات موائد المتقدمين، ولا من خُشارة ملفوظات السابقين، وخُثارِ الماضين، إلا النادر الذي هو كالمعدوم، وما عدا ذلك فهو من ربي الذي أسبغَ عليَّ مِن باكورة العطاء، وألهمني من نِكاتٍ ما لم تعط أحد من العلماء، ليشدّ أزْرِي ويضع عني وِزْري، ويؤيدني في إزراء القادحين، ويُتمّ حجّتي على المنكرين المستكبرين. فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله، هو ربنا وملجأنا، إنّا تُبْنا إليه وهو أرحم الراحمين.

واعلم أيها الناظر في هذا الكتاب أنا تركنا تفسير البسملة، ولم نكتب فيه شيئا، لأن تفسير الفاتحة قد أحاطت* بتفسيرها، وأغنى عنها ببيان مبين. والآن نشرع في المقصود متوكلين على الله النصير المعين.

﴿الْحَمْدُ للهِ﴾

هو الثناء باللسان على الجميل للمقتدر النبيل على قصد التبجيل، والكامل التام من افراده مختصٌّ بالرب الجليل، وكل حمدٍ من الكثير والقليل، يرجع إلى **ربنا** الذي هو هادي الضال ومُعِز الذليل، وهو محمود المحمودين.

---

* *يبدو أن التاء زيدت هنا سهوا، والصحيح: "أحاط". (الناشر)*

والشكر يُفارق الحمدَ بخصوصيته بالصفات المتعدية عند أكثر العلماء، والمدحُ يفارقه في جميلٍ غير اختياريٍّ كما لا يخفى على البُلغاء والأدباء الماهرين.

وإن الله تعالى افتتح كتابه بالحمد لا بالشكر ولا بالثناء، لأن الحمد يُحيط عليهما بالاستيفاء، وقد ناب منابَهما مع الزيادة في الرِّفاء وفي التزيين والتحسين. ولأن الكُفّار كانوا يحمدون **طواغيتهم** بغير حق، ويؤثرون لفظ الحمد لمدحهم ويعتقدون أنهم منبع المواهب والجوائز ومن الجوّادين؛ وكذلك كان **موتاهم** يُحمَدون عند تعديد النوادب، بل في الميادين والمآدب، كحمد الله الرازق المتولي الضمين؛ **فهذا ردٌّ** عليهم وعلى كل من أشرك بالله وذكرٌ للمتوسّمين. وفي ذلك يلوم الله تعالى **عَبَدةَ الأوثان** واليهود والنصارى وكل من كان من المشركين. فكأنه يقول أيها المشركون.. لِمَ تحمدون شركاءكم وتُطرُون كبراءكم؟ أهم أربابكم الذين **ربّوكم** وأبناءكم؟ أم هم **الراحمون** الذين يرحمونكم ويردّون بلاءكم، ويدفعون ما ساءكم وضَرَّاءكم، ويحفظون **خيرًا** جاءكم، ويَرحَضون عنكم قَشَفَ الشدائد ويداوون داءكم، أم هم مالِكُ **يوم الدين؟** بل الله يُربّي ويرحم بتكميل الرفاء، وعطاء أسباب الاهتداء، واستجابة الدعاء، والتنجية من الأعداء، وسيعطي أجر العاملين الصالحين.

وفي لفظ "الحمد" إشارة أخرى وهي أن الله تبارك وتعالى يقول أيها العباد اعرفوني بصفاتي، وتعرّفوني بكمالاتي، فإني لست

كالناقصين، بل يزيد حمدي على إطراء الحامدين، ولن تجد محامدًا لا في السماوات ولا في الأرضين إلا وتجدها في وجهي، وإن أردتَ إحصاء محامدي فلن تحصيها، وإن فكّرتَ بشقّ نفسك وكلفت فيها كالمستغرقين. فانظر هل ترى من حمد لا يوجد في ذاتي؟ وهل تجد من كمال بُعِّدَ مني ومن حضرتي؟ فإن زعمت كذلك فما عرفتني وأنت من قوم عمين. بل إنني أُعرَف بمحامدي وكمالاتي، ويُرَى وابلي بسُحُبِ بركاتي، فالذين حسبوني مستجمِعَ جميعِ صفات كاملة وكمالات شاملة، وما وجدوا من كمال وما رأوا من جلال إلى جولانِ خيال، إلا ونسبوها إليَّ، وعزوا إليّ كل عظمة ظهرت في عقولهم وأنظارهم، وكلَّ قدرة تراءت أمام أفكارهم، فهم قوم يمشون على طرق معرفتي، والحق معهم وأولئك من الفائزين.

فقوموا.. عافاكم الله.. واستقرِئوا محامده عزَّ اسمه، وانظروا وأمعِنوا فيها كالأكياس والمتفكرين. واستنفِضوا واستشفّوا أنظاركم إلى كل جهة كمال وتَحسَّسوا منه في قَيْض العالم ومُحِّه، كما يتحسس الحريص أمانيه بشُحّه، فإذا وجدتم كماله التام وريّاه، فإذا هو إيّاه، وهذا سرّ لا يبدو إلا على المسترشدين.

فذلكم ربكم ومولاكم الكامل المستجمِع لجميع الصفات الكاملة، والمحامد التامة الشاملة، ولا يعرفه إلا من تدبر في الفاتحة، واستعان بقلب حزين. وإن الذين يُخلصون مع الله نيّةَ العقد،

ويعطونه صفقة العهد، ويُطهّرون أنفسهم من الضغن والحقد، تُفتح عليهم أبوابها فإذا هم من المبصرين.

ومع ذلك فيه إشارة إلى أنه مَن هلَك بخطاه في أمر معرفة الله تعالى، أو اتخذ إلها غيره، فقد هلك مِن رفضِ رعاية كمالاته وتركِ التأنق في عجائباته، والغفلةِ عما يليق بذاته، كما هو عادة المبطلين. ألا تنظر إلى النصارى أنهم دُعوا إلى التوحيد، فما أهلكهم إلا هذه العلّة، وسوّلتْ لهم النفسُ المضلّة، والشهوة المُزِلّة، أن اتخذوا عبدًا إلهًا، وارتضعوا عُقار الضلالة والجهالة، ونسوا كمال الله تعالى وما يجب لِذاته، ونحتوا لله البنات والبنين. ولو أنهم أمعنوا أنظارهم في صفاتِ الله تعالى وما يليق له من الكمالات لما أخطأ توسُّمُهم وما كانوا من الهالكين. فأشار الله تعالى ههنا أن القانون العاصم من الخطأ في معرفة البارئ.. عز اسمه.. إمعانُ النظر في كمالاته، وتتبُّعُ صفات تليق بذاته، وتذكُّر ما هو أولى من جدوى، وأحرى من عدوى، وتصوُّرُ ما أثبتَ بأفعاله من قوّته وحوله وقهره وطَوْله، فاحفَظْه ولا تكنْ من اللافتين. واعلم أن الربوبية كلها لله، والرحمانية كلها لله، والرحيمية كلها لله، والحكم في يوم المجازاة كله لله، فإياك وتَأَبِّيك مِن مطاوعة مُربّيك، وكُنْ من المسلمين الموحّدين. وأشار في الآية إلى أنه تعالى مُنــزّه من تجدُّد صفة، وحُؤول حالة، ولُحوق وصمةٍ، وحَوْرٍ بعد كَوْرٍ، بل قد ثبَت الحمدُ له أوّلا وآخرا،

وظاهرا وباطنا، إلى أبد الآبدين. ومن قال خلاف ذلك فقد احْرَوْرَف وكان من الكافرين.

وقد علمتُ أن هذه الآية ردٌّ على النصارى وعَبَدةِ الأوثان، فإنهم لا يوفون الله حَقَّه، ولا يرجون له بَرْقَه، بل يُغدِفون عليه ستارة الظلام، ويلقونه في سبل الآلام، ويُبعدونه من الكمال التام، ويُشركون به كثيرا من المخلوقين. فهذا هو الظن الذي أرْداهم، والتقليد الذي أبادهم وأهلكهم، بما عوّلوا على أقوال المفترين، وزعموا أنهم من الصادقين. وقالوا إن هذه في الآثار المنتقاة المدوَّنة عن الثقات، وما تَوجَّهوا إلى عثر آبائهم، وجهلِ عُلمائهم، وتشريقهم وتغريبهم من مراكز تعاليم النبيين، وتَيْهِهم في كل واد هائمين. والعجب من فهمهم وعقلهم أنهم يعلمون أن الله كامل تام لا يجوز فيه نقصٌ وشُنْعَة وشحوب وذهول، وتغيُّرٌ وحُؤول، ثم يُجوِّزون فيه كثيرا منها، وينسبون إليه كلَّ شقوة وخسران، وعيب ونقصان، ويكذّبون ما كانوا صدّقوه أوّلاً ويهذون كالمجانين.

وفي لفظ الحمد لله تعليم للمسلمين أنهم إذا سُئلوا وقيل لهم من إلهكم.. فوجَب على المسلم أن يجيبه أن إلهي الذي له الحمد كله، وما من نوعِ كمال وقدرة إلا وله ثابت، فلا تكن من الناسين. ولو لاحظَ المشركين حظُّ الإيمان، وأصابهم طلٌّ من العرفان، لما طاحَ بهم ظنُّ السوء بالذي هو قيّوم العالمين. ولكنهم حسبوه كرجل شاخَ بعد الشباب، واحتاج بعد صمديّته إلى الأسباب، ووقعت عليه

شدائدُ نُحولٍ وقُحول، وقَشَفُ مُحول، ووقع في الإتراب، بل قرب من التباب، وكان من المتربين.

﴿رَبِّ العالمينَ * الرَّحْمَنِ * الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

اعلم أوّلاً أن العالم ما يُعلَم ويُخبَر عنه، وما يدل على الصانع الكامل الواحد المدبّر بالإرادة، ويلتَحِص الطالبَ إلى الإيمان به، وينصّه إلى المؤمنين.

وأما خبايا أسرارِ أسماءٍ ذكَرها الله تعالى في هذه الآيات، وأودعَها أنواعَ النِّكات، فأَصْغِ إليّ أكشفْ لك قِناعها إن كنتَ استمحتَني وجئتني كالمخلصين. فاعلم أن هذه الصفات عيون لفيوض الله الكاملة النازلة على أهل الأرض والسماء، وكلُّ صفة منبعٌ لقسمٍ فيضٍ بترتيبٍ أودع الله آثارها في العالم، ليُري توافُقَ قولِه بفعله وليكون آية للمتفكرين.

فالقسم الأول من أقسام الصفات الفيضانية صفةٌ يسمّيها ربّنا "رب العالمين". وهذه الصفة أوسعُ الصفات في الإفاضة، ولا بد من أن نسمّي فيضانها فيضانا أعمَّ، لأن صفة الربوبية قد أحاطت الحيواناتِ وغير الحيوانات، بل أحاطت السماوات والأرضين، وفيضانها أعمُّ من كل فيض، ما غادر إنسانا ولا حيوانا ولا شجرا ولا حجرا ولا سماءً ولا أرضا بل نزل ماؤه على كل شيء فأحياه،

وأحاط بالكائنات كلها ظواهرها وبواطنها، فكلُّ شيء صنيعةٌ من الله الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين. واسم ذلك الفيض ربوبيةٌ، وبه يبذر الله بذر السعادة في كل سعيد، وعليه يتوقف استثمار الخيرات وبروز مادة السعادات، وآثار الورع والحزامة والتقاة وكل ما يوجد في الرشيدين. وكل شقي وسعيد، وطيب وخبيث، يأخذ حَظَّه كما شاء ربُّه في المرتبة الربوبية، فهذا الفيض يجعل من يشاء إنسانًا، ويجعل من يشاء حمارًا، ويجعل ما يشاء نُحاسًا، ويجعل ما يشاء ذهبًا، وما كان الله من المسؤولين.

واعلم أن هذا الفيض جارٍ على الاتصال بوجه الكمال، ولو فُرض انقطاعه طرفةَ عين لفسدت السماوات والأرض وما فيهن، ولكن أحاط صحيحًا ومريضًا، ويَفاعًا وحضيضًا، وشجرًا وحجرًا، وكل ما في العالمين.

وقدّم الله هذا الفيض في كتابه وضعًا، لتقدُّمه في عالم أسبابه طبعًا، فليس هذا التقديم محدودا في توشية الكلام، ومحصورا في رعاية الصفاء التام، بل هي بلاغة حكمية لإراءة النظام، من حيث إنه تعالى جعل أقواله مرآةً لرؤية أفعاله الموجودة في طبقات الأنام، لتطمئن به قلوب العارفين.

والقسم الثاني من الصفات الفيضانية، صفة يسمّيها ربُّنا "الرحمن". ولا بد من أن نسمي فيضانه فيضانا عامّا ورحمانية، وله مرتبة بعد مرتبة الفيضان الأعمّ، وهو أخصّ من الفيضان الأول، ولا

ينتفع منه إلا ذوو الروح من أشياء السماء والأرضين. وإن الله في وقت هذا الفيض لا ينظر الاستحقاقَ والعمل والشكر، بل يُنـــزله فضلا منه على كل ذي روح.. إنسانا كان أو حيوانا، مجنونا كان أو عاقلا، مؤمنا كان أو كافرا، ويُنجّي كلَّ روح من هلكةٍ دانت منها بعد ما كادت تهوي فيها، ويُعطي كلَّ شيء خَلقًا ينفعه، لأن الله جوّاد بالذات وليس بضنين. فكل ما ترى في السماء من الشمس والقمر والنجوم والمطر والهواء، وما ترى في الأرض من الأنهار والأشجار والأثمار، والأدوية النافعة والألبان السائغة، والعسل المصفّى، فكلها مِن رحمانيته ﷻ، لا مِن عمل العاملين. وإلى هذا الفيضان أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ⭘، وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَن عَلَّم الْقُرآنَ﴾ ⊙، وفي قوله تعالى: ﴿مَن يَكْلَؤُكُمْ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ ✸، وفي قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ﴾ ✪، تذكرةً للمتقين. ولو لم يكن هذا الفيضان لما كان لطيرٍ أن يطير في الهواء، ولا لحوت أن يتنفس في الماء، ولأبادَ كلَّ مُعِيلٍ ضَفَفُه، وكلَّ ذي قَشَفٍ شَظَفُه، وما بقِي سبيل لإماطته كما لا يخفى على المستطلعين.

ألا ترى كيف يحيي الله الأرض بعد موتها؟ ويكوّر الليلَ على النهار ويكوّر النهارَ على الليل، وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري

⭘ الأعراف:١٥٧ ⊙ الرحمن:٢-٣ ✸ الأنبياء:٤٣ ✪ الملك:٢٠

لأجل مسمّى، إن في ذلك لآيات رحمانية للمتدبرين. وجعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهارَ مبصرًا، وجعل لكم الأرض قرارًا والسماء بناءً، وصَوَّرَكم فأحسَنَ صُوركم، ورزَقكم من الطيبات، فذلكم الرحمن ربكم مُربِّي المساكين. والذين كفروا برحمانيته فجعلوا لله عليهم سلطانا مبينا، وما قدروا الله حق قدره وكانوا من الغافلين. ألا يرون إلى الشمس التي تجري من المشرق إلى المغرب؟ أكان خَلقها وجريها مِن عملهم أو مِن تفضُّل الرحمن الذي وسعتْ رحمانيته الصالحين والظالمين. وكذلك يُنـــزل الله ماءً في أوقاته، فينشئ به زروعا وأشجارا فيها فواكه كثيرة، أفهذه النعماء مِن عمل عامل أو رحمانية خالصة من الله تعالى الذي نجانا مِن كل اعتياص المعيشة، وأعطانا سُلّمًا لكل حاجة نحتاج فيها إلى الارتقاء، وأرشيةً نحتاج إليها للاستسقاء. فسبحان الله الذي أنعم علينا برحمانيته، وما كان لنا من عمل نستحق به، بل خلَق نعماءه قبل أن نُخلَق، فانظر.. هل ترى مثله في المنعمين؟

فحاصل الكَلام أن الرحمانية رحمة عامة لنوع الإنسان والحيوان، ولكل ذي روح وكل نفس منفوسة، مِن غير إرادةِ أجرِ عملٍ ومِن غير لحاظِ استحقاقِ عبدٍ بصلاحه وتورُّعه في الدين.

والقسم الثالث من الصفات الفيضانية صفة يُسمّيها ربُّنا "الرحيم"، ولا بد من أن نسمّي فيضانها فيضانا خاصا ورحيميةً من الله الكريم للذين يعملون الصالحات ويشمّرون ولا يقصّرون،

ويذكرون ولا يغفلون، ويبصرون ولا يتعامون، ويستعدّون ليوم الرحيل، ويتّقون سخط الرب الجليل، ويبيتون لربهم سُجّدًا وقيامًا، ويصبحون صائمين. ولا ينسون موتهم ورجوعهم إلى مولاهم الحق، بل يعتبرون بنعيٍ يُسمَع، ويرتاعون لإلفٍ يُفقَد، ويذكرون مناياهم من موت الأحباب، ويهولُهم هَيْلُ التراب على الأتراب، فيلتاعون ويتنبهون، ويُريهم اختارمُ الأحبّة موتَ أنفسهم، فيتوبون إلى الله وهم من الصالحين.

فلعلّك فهمتَ أن هذا الفيضان ينـــزل من السماء على شريطة العمل والتورّع والسِّمَة الصالحة والتقوى والإيمان، ولا وجودَ له إلا بعد وجود العقل والفهم، وبعد وجود كتاب الله تعالى وحدوده وأحكامه، وكذلك المحرومون من هذه النعمة لا يستحقون عتابا ومؤاخذة من قَبْل هذه الشرائط. فظهَر أن الرحيمية تَوْءَمٌ لكتاب الله وتعليمه وتفهيمه، فلا يؤخذ أحدٌ قبله، ولا يُدرك أحدا عطبُ القهر إلا بعد ظهور هذه الرحيمية، ولا يُسأل فاسق عن فسقه إلا بعدها. فخُذْ هذا السرّ مني وهو ردٌّ على المتنصرين. فإنهم قائلون بلسع الذنب من آدم إلى انقطاع الدنيا، ويقولون إن كل عبد مذنبٌ سواء عليه بلَغه كتابٌ من الله تعالى وأُعطيَ له عقل سليم أو كان من المعذورين. وزعموا أن الله تعالى لا يغفر أحدًا إلا بعد إيمانه بالمسيح، وزعموا أن أبواب النجاة مغلقة لغيره، ولا سبيل إلى المغفرة بمجرد الأعمال، فإن الله عادل، والعدل يقتضي أن يعذّب من كان مذنبا

وكان من المجرمين. فلما حصحص اليأس من أن تُطهَّر الناسُ بأعمالهم، أرسلَ إليهم ابنَه الطاهر ليَزِرَ وِزْرَ الناس على عنقه، ثم يُصلَب ويُنجّي الناس من أوزارهم، فجاء الابن وقُتل ونجّى النصارى، فدخلوا في حدائق النجاة فرحين.

هذه عقيدتهم، ولكن من نَقَدَها بعين المعقول ووَضعها على معيار التحقيقات، سلَكها مسلك الهذيانات. وإنْ تعجَب فما تجد أعجبَ من قولهم هذا. لا يعلمون أن العدل أهمُّ وأوجب من الرحم، فمن ترك المذنب وأخذ المعصوم ففعَل فعلاً ما بقِي منه عدل ولا رحم، وما يفعل مثل ذلك إلا الذي هو أضل من المجانين.

ثم إذا كانت المؤاخذات مشروطة بوعد الله تعالى ووعيده فكيف يجوز تعذيب أحد قبل إشاعة قانون الأحكام وتشييده، وكيف يجوز أخذُ الأولين والآخرين عند صدور معصية ما سبَقها وعيدٌ عند ارتكابها، وما كان أحد عليها من المطّلعين. فالحق أن العدل لا يوجد أثره إلا بعد نزول كتاب الله ووعده ووعيده وأحكامه وحدوده وشرائطه.

وإضافة العدل الحقيقي إلى الله تعالى باطل لا أصل لها، لأن العدل لا يُتصوَّر إلا بعد تصوُّرِ الحقوق وتسليم وجوبها، وليس لأحد حق على رب العالمين. ألا ترى أن الله سخّر كل حيوان للإنسان وأباح دماءها لأدنى ضرورته، فلو كان وجوب العدل حقًّا على الله تعالى لما كان له سبيلٌ لإجراء هذه الأحكام، وإلا فكان من

الجائرين. ولكن الله يفعل ما يشاء في ملكوته، يُعزّ من يشاء، ويُذلّ من يشاء، ويُحيي من يشاء، ويميت من يشاء، ويرفع من يشاء، ويضع من يشاء. ووجود الحقوق يقتضي خلاف ذلك، بل يجعل يداه مغلولة، وأنت ترى أن المشاهدة تُكذّبها، وقد خلق الله مخلوقه على تفاوُت المراتب، فبعض مخلوقه أفراسٌ وحمير، وبعضه جِمالٌ ونوق، وكلاب وذياب ونمور، وجعل لبعض مخلوقه سمعا وبصرا، وخلق بعضهم صُمًّا، وجعل بعضهم عمين. فلأيّ حيوان حقٌّ أن يقوم ويخاصم ربَّه أنه لِم خلَقه كذا ولَم يخلقه كذا؟

نعمْ.. كتَب الله على نفسه حق العباد بعد إنزال الكتب وتبليغ الوعد والوعيد، وبشَّر بجزاء العاملين. فمن تبع كتابه ونبيه ونهى النفسَ عن الهوى فإن الجنة هي المأوى، ومن عصى ربه وأحكامه وأبى، فسيكون من المعذَّبين. فلما كان مَلاك الأمر الوعد والوعيد، لا العدل العتيد، الذي كان واجبا على الله الوحيد، انهدم من هذا الأصول[٥] المنيفُ الممرَّدُ الذي بناه النصارى من أوهامهم. فثبت أن إيجاب العدل الحقيقي على الله تعالى خيال فاسد ومتاع كاسد، لا يقبَله إلا من كان من الجاهلين. ومن هنا نجد أن بناء عقيدة الكفّارة على عدل الله بناءٌ فاسد على فاسد، فتدبَّرْ فيه فإنه يكفيك لكسر صليب النصارى إن كنت من المناظرين.

---

[٥] *سهو، والصحيح: "الأصل". (الناشر)*

واسم هذه الصفة في كتاب الله تعالى رحيمية كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ☆، وقال: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ✸. فهذا الفيضان لا يتوجه إلا إلى المستحق، ولا يَطلبُ إلا عاملا، وهذا هو الفرق بين الرحمانية والرحيمية، والقرآن مملوٌّ من نظائره، ولكن كفاك هذا القدر إن كنت من العاقلين.

القسم الرابع من الفيضان.. فيضان نسمّيه فيضانا أخصّ ومظهرًا تامًّا للمالكية، وهو أكبر الفيوض وأعلاها، وأرفعها وأتمّها وأكملها ومُنتهاها، وثمرة أشجار العالمين، ولا يظهر إلا بعد هدم عمارات هذا العالم الحقير الصغير ودروسِ أطلاله وآثاره، وشحوبِ سحنته ونضوبِ ماء وَجنته، وأفولِ نجمه كالمغرّبين. وهو عالم لطيف دقّتْ أسراره، وكثرت أنواره، يحارُ فيها فهمُ المتفكرين.

وإن قلت لم قال الله تعالى في هذا المقام: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وما قال: عادلٌ يوم الدين؟ فاعلم أن السر في ذلك أن العدل لا يتحقق إلا بعد تحقُّق الحقوق، وليس لأحد من حق على الله رب العالمين. ونجاة الآخرة موهبة من الله تعالى للذين آمنوا به وسارعوا إلى امتثاله وتقبُّل أحكامه وعبادته ومعرفته بسرعة معجبة، كأنهم كانوا في نَجاء حركاتهم ومَسائحِ غَدَواتهم ورَوحاتهم ممتطين على هوجاءَ شِمِلَّةٍ، ونُوقٍ مُشْمَعِلَّةٍ، وإن لم يُتمّوا أمر الإطاعة، وما عبدوا حق العبادة، وما عرفوا حق المعرفة، ولكن كانوا عليها حريصين.

☆ الأحزاب:٤٤ ✸ الحجرات:٦

وكذلك الذين عصوا ربهم، وإن لم تبلغ شقوتهم مداها، ولكن كانوا إليها مسارعين، وكانوا يعملون السيئات ويزيدون في جراءاتهم وما كانوا من المنتهين. فكلٌّ يرى ما كان في نيّته رحمةً من الله أو قهرًا، فمَن ناوَحَ مَهَبَّ نسيمِ الرحمة فسيجد حظًّا منها خالدًا فيها، ومَن قابَلَ صراصرَ القهر فسيقع في صدماتها. وما هذا إلا المالكية لا العدل الذي يقتضي الحقوق، فتدبَّرْ ولا تكن من الغافلين.

واعلم أن في ترتيب هذه الصفات بلاغة أخرى نريد أن نذكرها لتكتحل مِن كُحل المتبصرين. وهو أن الآيات التي رصّع اللهُ بعدَها كلها مقسومة على تلك الصفات برعاية المحاذاة، ووضعِ بعضها تحت بعض كطبقات السماوات والأرضين. وتفصيله أنه تعالى ذكر أوّلاً ذاتَه وصفاتِه بترتيب يوجَد في العالمين. ثم ذكَر كل ما هو يناسب البشريةَ بترتيب يُشاهَد في قانون الله، ومع ذلك جعَل كل صفة بشرية تحت صفة إلهية، وجعل لكل صفة إنسانية مشرَبًا وسُقيًا من صفةٍ إلهية تستفيض منها، وأرى التقابلَ بينهما بترتيب وضعي يوجَد في الآيات، فتبارك الله أحسن المرتّبين. وتشريحه التام أن الصفات مع اسم الذات خمسةُ أبحرٍ قد تقدّمَ ذكرُها في صدر السورة.. أعني: (١) الله، (٢) ورب العالمين، (٣) والرحمن، (٤) والرحيم، (٥) ومالك يوم الدين. فجعل الله كمثلها خمسة من المغترفات مما ذكر من بعد، وقابلَ الخمسةَ بالخمسةِ، وكل واحد من

المغترفات يشرب من ماءِ صفةٍ تُشابهه وتُناوحه، وتأخذ مما احتوت على معان تسرُّ العارفين.

مثلاً.. **أوّلُها بحرُ** اسم الله تعالى، وتغترف منه جملةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي حذَتْه وصارت كالمحاذين. وحقيقة التعبد تعظيمُ المعبود بالتذلل التام والاحتذاء بمثاله والانصباغ بصبغه والخروج من النفس والأنانية كالفانين. وسرُّه أن العبد قد خُلق كالمريض والعليل والعطشان، وشفاؤه وتسكين غُلّته وإرواء كبده في ماءِ عبادة الله، فلا يبرأ ولا يرتوي إلا إذا يَثني إليه انصبابَه، ويُفرط صبابه، ويسعى إليه كالمستسقين. ولا يُطهِّر قريحَته ولا يلبِّد عَجاجَته ولا يُحلّي مُجاجَته إلا ذِكرُ الله، ألا بذكر الله تطمئن قلوب الذين يعبدون الله ويأتونه مسلمين. ففي آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إقرارٌ لمعبودية الله الذي هو مستجمع بجميع صفات الكاملية، ولذلك وقعت هذه الجملة تحت جملة: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾، فانظر إن كنت من الناظرين.

وثانيها بحرُ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتغترف منها جملةُ: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فإن العبد إذا سمع أن الله يُربّي العالمين كلها، وما من عالم إلا هو مربّيه، ورأى نفسَه أمّارةً بالسوء، فتضرّعَ واضطرّ والتجأ إلى بابه، وتعلّقَ بأهدابه، ودخل في مآدبه برعاية آدابه، ليدركه بالربوبية ويُحسن إليه وهو خير المحسنين؛ فإن الربوبية صفةٌ تعطي كلَّ شيء خَلْقَه المطلوبَ لوجوده، ولا يغادره كالناقصين.

وثالثها بحرُ اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ وتغترف منه جملةُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ليكون العبد من المهتدين المرحومين. فإن الرحمانية تُعطي كلَّ ما يحتاج إليه الوجود الذي رُبِّيَ من صفة الربوبية، فهذه الصفة تجعل الأسبابَ موافقةً للمرحوم. وأثرُ الربوبية تسويةُ الوجود وتخليقه كما يليق وينبغي، وأثرُ هذه الصفة أنها تُكسِي ذلك الوجودَ لباسًا يواري سوأته، وتَهَبُ له زينتَه، وتكحل عينه وتغسل وجهه، وتعطي له فرسًا للركوب، وتُريه طرق الفارسين. ومَرْتبتها بعد الربوبية، وهي تعطي كلَّ شيء مطلوبَ وجوده، وتجعله من الموفَّقين.

ورابعها بحرُ اسم ﴿الرَّحِيمِ﴾ وتغترف منه جملةُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ليكون العبد من المنعَمين المخصوصين. فإن الرحيمية صفة مُدْنيةٌ إلى الإنعامات الخاصّة التي لا شريك فيها للمطيعين، وإن كان الإنعام العام محيطة بكل شيء من الناس إلى الأفاعي والتنّين.

وخامسها بحرُ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتغترف منه جملةُ ﴿غَيْرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. فإن غضب الله وتركه في الضلالة لا تَظهَر حقيقتُه على الناس على وجه[٥] الكامل إلا في يوم المجازاة، الذي يُجاليهم الله فيه بغضبه وإنعامه، ويُجالحهم بتذليله وإكرامه،

---

[٥] سهو، والصحيح: "الوجه". (الناشر)

ويُجلّي عن نفسه إلى حَدٍّ ما جلَّى كمثله، وتراءى السابقون كفرس مُجلّى، وتراءت الجالية بغَيِّهم المبين. وفيه يعلم الذين كفروا أنهم كانوا موردَ غضب الله وكانوا قوما عمين. ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، ولكن عَمَى هذه الدنيا مخفيٌّ ويتبيّن في يوم الدين. فالذين أبوا وما تبعوا هَدْي رسولنا ونور كتابنا وكانوا لطواغيتهم متّبعين، فسوف يرون غضب الله وتغيُّظَ النار وزفيرها، ويرون ظلمتهم وضلالتهم بالأعين، ويجدون أنفسهم كالظالع الأعور، ويدخلون جهنم خالدين فيها، وما كان لهم أحد من الشافعين.

وفي الآية إشارة إلى أن اسم ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ذو الجهتين.. يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، فاسألوه أن يجعلكم من المهتدين.

هذا ما أردنا من بيان بعض نكات هذه الآية ولطائفها الأدبية التي هي للناظرين كالآيات، وبلاغتُها الرائعة المبتكرة المحبّرة المحتوية على محاسن الكنايات، مع دُرر حِكَمية ومعارف نادرة من دقائق الإلهيات، فلا تجد نظيرها في الأولين والآخرين. فلا شك أن مُلَحَ أدبها بارعة، وقَدَمَها على أعلام العلوم فارعة، وهي يصبي◈ قلوب العارفين.

◈ سهو، والصحيح: "تصبي". (الناشر)

وقد علمتَ ترتيب خمسة أبحر التي تجري بعضها تلو بعض، فتَسَلَّمْه وكن من الشاكرين. وأما ترتيب المغترفات فتعرفه بترتيب أبحرها إن كنت من المغترفين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قدّم الله ﷻ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارةً إلى تفضلاته الرحمانية من قَبْل الاستعانة، فكأن العبد يشكر ربه ويقول يا رب إني أشكرك على نعمائك التي أعطيتني من قبل دعائي ومسألتي وعملي وجهدي واستعانتي بالربوبية والرحمانية التي سبقت سُؤْلَ السائلين، ثم أطلبُ منك قوةً وصلاحًا وفلاحًا وفوزًا ومقاصد التي لا تُعطَى إلا بعد الطلب والاستعانة والدعاء وأنت خير المعطين.

وفي هذه الآيات حثٌّ على شكرِ ما تُعطى، والدعاءِ بالصبر فيما تتمنى، وفرطِ اللهج إلى ما هو أتمّ وأعلى، لتكون من الشاكرين الصابرين. وفيها حثٌّ على نفي الحَول والقوة، والاستطراح بين يدي سبحانه مترقبًا منتظرًا مديمًا للسؤال والدعاء والتضرع والثناء، والافتقار مع الخوفِ والرجاء، كالطفل الرضيع في يد الظئر، والموتِ عن الخلق وعن كل ما هو في الأرضين. وفيها حثٌّ على إقرارٍ واعتراف بأننا الضعفاء، لا نعبدك إلا بك، ولا نتحسس منك إلا

بعونك، بك نعمل وبك نتحرك، وإليك نسعى كالثواكل متحرقين وكالعشاق متلظّين. وفيها حثٌّ على الخروج من الاختيال والزَّهْو، والاعتصام بقوة الله تعالى وحوله عند اعتياص الأمور وهجوم المشكلات، والدخول في المنكسرين. كأنه – تعالى شأنه – يقول يا عباد احسَبوا أنفسكم كالميتين، وبالله اعتضِدوا كل حين. فلا يَزْدَه الشابُّ منكم بقوته، ولا يتخصّر الشيخ بهراوته، ولا يفرح الكَيِّسُ بدهائه، ولا يثق الفقيه بصحة علمه وجودة فهمه وذكائه، ولا يتّكئ الملهَم على إلهامه وكشفه وخلوص دعائه، فإن الله يفعل ما يشاء، ويطرد من يشاء، ويُدخل من يشاء في المخصوصين.

وفي جملة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى عظمة شرّ النفس الأمّارة التي تسعى كالعَسَّارة، فكأنها أفعى شرُّها قد طَمَّ، فجعَل كلَّ سليم كعظم إذا رَمَّ، وتراها تنفث السمَّ، أو هي ضرغامٌ ما ينكُل إن هَمَّ، ولا حولَ ولا قوة ولا كسب ولا لَمَّ، إلا بالله الذي هو يرجم الشياطين.

وفي تقديم ﴿نَعْبُدُ﴾ على ﴿نَسْتَعِينُ﴾ نكاتٌ أخرى، فنكتب للذين هم مشغوفون بآيات المثاني لا برنّات المثاني، ويسعون إليها شائقين. وهي أن الله ﷻ يعلّم عباده دعاءً فيه سعادتهم، فيقول يا عباد سَلُوني بالانكسار والعبودية، وقولوا: ربنا إياك نعبد ولكن بالمعاناة والتكلف والتجشم وتَفْرقة الخاطر وتمويهات الخنّاس وبالرويّة الناضبة والأوهام الناصبة والخيالات المظلمة، كماءٍ مُكدّرٍ

مِن سَيْل أو كحاطب ليل، وإن نتّبعُ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين. ﴿وإياك نستعين﴾ يعني: نستعينك للذوق والشوق والحضور والإيمان الموفور، والتلبية الروحانية والسرور والنور، ولتوشيح القلب بحُلي المعارف وحُلل الحبور، لنكون بفضلك من سبّاقين في عرصات اليقين، وإلى منتهى المآرب واصلين، وفي بحار الحقائق متوردين.

وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنبيه آخر، وهو أنه يرغّب فيه عبادَه إلى أن يبذلوا في مطاوعته جُهْدَ المستطيع، ويقوموا مُلبّين في كل حين تلبيةَ المطيع. فكأن العباد يقولون: ربنا إنّا لا نألو في المجاهدات، وفي امتثالك وابتغاء المرضاة، ولكن نستعينك ونستكفي بك الافتنانَ بالعُجب والرياء، ونستوهب منك توفيقًا قائدًا إلى الرشد والرضاء، وإنّا ثابتون على طاعتك وعبادتك، فاكتُبْنا في المطاوعين.

وهنا إشارة أخرى وهي أن العبد يقول يا ربّ إنّا خصصناك بمعبوديّتك، وآثرْناك على كل ما سواك، فلا نعبد شيئا إلا وجهك، وإنّا من الموحِّدين.

واختار ﷻ لفظَ المتكلّم مع الغير إشارةً إلى أن الدعاء لجميع الإخوان لا لنفس الداعي، وحثَّ فيه على مسالمة المسلمين واتحادهم ووادادهم، وعلى أن يعنو الداعي نفسه لنصح أخيه كما يعنو لنصح ذاته، ويهتم ويقلق لحاجاته كما يهتم ويقلق لنفسه، ولا يفرّق بينه وبين أخيه، ويكون له بكل القلب من الناصحين. فكأنه تعالى

يوصي ويقول يا عباد تَهادوا بالدعاء تَهادي الإخوان والمحبّين. وتَناثَوا دعواتكم وتَباثَوا نيّاتكم، وكونوا في المحبة كالإخوان والآباء والبنين.

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

هذا الدعاء ردٌّ على قول الذين يقولون إن القلم قد جفَّ بما هو كائن، فلا فائدة في الدعاء، فاللهُ تبارك وتعالى يُبشّر عباده بقبول الدعاء، فكأنه يقول يا عباد ادعوني أستجبْ لكم. وإن في الدعاء تأثيرات وتبديلات، والدعاء المقبول يُدخل الداعي في المنعَمين.

وفي الآية إشارة إلى علامات تُعرَف بها قبولية الدعاء على طريق الاصطفاء، وإيماءٌ إلى آثار المقبَّلين. لأن الإنسان إذا أحبّ الرحمنَ وقوّى الإيمانَ، فذلك الإنسان وإن كان على حُسن اعتقاد في أمر استجابة دعواته، ولكن الاعتقاد ليس كعين اليقين، وليس الخبر كالمعاينة، ولا يستوي حال أولي الأبصار والعمين، بل من يُدرَّب باستجابة الدعاء حق التدرّب، وكان معه أثر من المشاهدات، فلا يبقى له شكٌّ ولا ريبٌ في قبولية الأدعية. والذين يشكّون فيها فسببُه حرمانُهم من ذلك الحظّ، ثم قلّةُ التفاتهم إلى ربهم، وابتلاؤهم بسلسلة أسبابٍ توجد في واقعات الفطرة وظهورات القدرة، فما

ترقّتْ أعينُهم فوق الأسباب المادية الموجودة أمام الأعين، فاستبعَدوا ما لم تُحِط بها آراؤهم وما كانوا مهتدين.

وفي هذه السورة نكاتٌ شتّى نريد أن نكتب بعضها، ومنها أن الفاتحة سبع آيات أوّلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العالمينَ﴾، وآخرها: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. وفي الآية الأولى بيانُ بدءِ الخَلق، وفي الأخرى إشارة إلى قوم تقوم القيامة عليهم وعلى أمثالهم من اليهود والمتنصرين. وفي تعيين "سبع" آية إشارةٌ إلى أن عمر الدنيا سبعة كما أن أيام أسبوعنا سبعة. وما ندري حقيقة السبعة على وجه التحقيق، أهي آلاف كآلافنا أو غير ذلك، ولكنا نعلم أنه ما بقي من السبعة إلا واحدًا، وقد أراد الله تصرفات جديدة بعد انقضائها، فيُهلك القرون الأولى عند اختتامها ويخلُق الآخرين.

وفي الآية السادسة.. يعني ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ نكتةٌ أخرى، وهي أن آدم قد خُلق في يوم السادس، وأُنعمَ عليه ونُفخ فيه روحُ الحياة في الجمعة بعد العصر، وكذلك يُخلَق رجلٌ في الألف السادس وهو آدم قومٍ أضاعوا إيمانهم، فيجيء ويُحيي قلوبهم، ويهَب لهم عرفانا غضًّا طريًّا، ويجعلهم بعد نومهم من المستيقظين.

وفي آية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارةٌ وحثٌّ على دعاء صحة المعرفة، كأنه يُعلّمنا ويقول ادعوا الله أن يُريكم صفاته كما هي ويجعلكم من الشاكرين، لأن الأمم الأولى ما ضلوا إلا بعد كونهم عُميًا في معرفة صفات الله تعالى وإنعاماته ومرضاته، فكانوا

يُفانُون الأيامَ فيما يزيد الآثام، فحلّ غضبُ الله عليهم، فضُربت عليهم الذلة وكانوا من الهالكين. وإليه أشار الله تعالى في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وسياق كلامه يُعلِم أن غضب الله لا يتوجه إلا إلى قوم أنعم الله عليهم من قبل الغضب، فالمراد من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في الآية قوم عصوا في نعماء وآلاءٍ رزقهم الله خاصة واتبعوا الشهوات، ونسوا المنعِم وحقه وكانوا من الكافرين. وأما الضالون فهم قوم أرادوا أن يسلكوا مسلك الصواب، ولكن لم يكن معهم من العلوم الصادقة والمعارف المنيرة الحقة، والأدعية العاصمة الموفقة، بل غلبت عليهم خيالات وهمية فركنوا إليها وجهلوا طريقهم، وأخطأوا مشربهم من الحق فضلّوا، وما سرّحوا أفكارهم في مراعي الحق المبين. والعجب من أفكارهم وعقولهم وأنظارهم أنهم جوَّزوا على الله وعلى خلقه ما يأبى منه الفطرة الصحيحة والإشراقات القلبية، ولم يعلموا أن الشرائع تخدم الطبائع، والطبيب معينٌ للطبيعة لا منازعٌ لها، فيا حسرةً عليهم.. ما ألهاهم عن صراط الصادقين!

وفي هذه السورة يُعلّم الله تعالى عباده المسلمين.. فكأنه يقول يا عباد.. إنكم رأيتم اليهود والنصارى، فاجتنِبوا شَبَهَ أعمالِهم، واعتصِموا بحبل الدعاء والاستعانة، ولا تنسوا نعماء الله كاليهود، فيحلّ عليكم غضبه، ولا تتركوا العلوم الصادقة والدعاء، ولا تهِنوا مِن طلب الهداية كالنصارى فتكونوا من الضالين.

وحثَّ على طلب الهداية إشارةً إلى أن الثبات على الهداية لا يكون إلا بدوام الدعاء والتضرع في حضرة الله. ومع ذلك إشارة إلى أن الهداية أمرٌ من لديه، والعبدُ لا يهتدي أبدًا من غير أن يهديه الله ويُدخله في المهدِيّين. وإشارةٌ إلى أن الهداية غير متناهية، وترقى النفوس إليها بسلّم الدعوات، ومَن ترك الدعاء فأضاع سُلّمه، فإنما الحريّ بالاهتداء مَن كان رَطْبَ اللسان بالدعاء وذكر ربه، وكان عليه من المداومين. ومن ترك الدعاء وادّعى الاهتداء، فعسى أن يتزين للناس بما ليس فيه، ويقع في هوّة الشرك والرياء، ويخرج من جماعة المخلصين. والمخلِص يترقّى يوما فيوما حتى يصير مُخلَصًا.. بفتح اللام.. وتَهَب له العناية سرًّا يكون بين الله وبينه ويدخل في المحبوبين، ويتنزل منزلةَ المقبولين. والعبد لا يبلغ حقيقة الإيمان من غير أن يفهم حقيقة الإخلاص ويقوم عليها، ولا يكون مخلصا وعنده على وجه الأرض شيءٌ يتّكئ عليه ويخافه أو يحسبه من الناصرين. ولا ينجو أحد من غوائل النفس وشرورها إلا بعد أن يتقبله الله بإخلاصه، ويعصمه بفضله وحوله وقوته، ويذيقه من شراب الروحانيين، لأنها خبيثة وقد انتهت إلى غاية الخبث وصارت منشأ الأهوية المضلّة الرديّة المُردية، فعَلَّم الله تعالى عباده أن يفروا إليه بالدعاء عائذا من شرورها ودواهيها ليُدخلهم في زُمر المحفوظين. وإن مثل جذبات النفس كمثل الحُمّيات الحادّة، فكما تجد عند تلك الحُمّيات أعراضا هائلة مشتدة مِثل النافض والبرد والقشعريرة، ومِثل

العرق الكثير والرعاف المفرط والقيء العنيف والإسهال المضعِف، والعطش الذي لا يُطاق، ومِثل السبات الكثير والأرَق اللازم، وخشونة اللسان وقحل الفم، ومِثل العُطاس المِلحّ والصداع الصعب، والسعال المتواتر وسقوط الشهوة والفُواق، وغيرِها من علامات المحمومين؛ كذلك للنفس جذبات وعلامات، موادها تفور، وأمواجها تمور، وأعراضها تدور، وبقراتها تخور، وأسيرها يبور، وقلَّ مَن كان من الناجين. فطلبُ الهداية كمثل الرجوع إلى الطبيب الحاذق والاستطراح بين يدي المعالجين. والإنعام الذي أشار الله إليه لعباده هو تبتُّلُ العبد إلى الله وإحماء وداده ودوام إسعاده، ورجوعُ الله إليه ببركاته وإلهاماته واستجاباته، وجَعْله طودًا من أطواده، وإدخاله في عباده المحفوظين، وقوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾✪، وجَعْله من الطيبين الطاهرين، فهذا هو الشفاءُ مِن حُمّى المعاصي، والعلاجُ بأوفَق الأدوية والأغذية، والتدبيرُ اللطيف الذي لا يعلمه إلا رب العالمين.

ثم اعلم أن الله في هذه السورة المباركة يُبين للمؤمنين ما كان آخر شأن أهل الكتاب ويقول إن اليهود عصوا ربهم بعد ما نزلت عليهم الإنعامات وتواترت التفضلات، فصاروا قوما مغضوبا عليه، والنصارى نسوا صفاتِ ربهم وأنزلوه منـــزلَ العبد الضعيف العاجز، فصاروا قوما ضالين.

✪ *الأنبياء: ٧٠*

وفي السورة إشارة إلى أن أمر المسلمين سيؤول إلى أمر أهل الكتاب في آخر الزمان، فيشابهونهم في أفعالهم وأعمالهم، فيدركهم الله تعالى بفضلٍ من لدنه، وإنعامٍ من عنده، ويحفظهم من الانحرافات السبُعيّة والبهيمية والوهمية، ويُدخلهم في عباده الصالحين.

وفي السورة إشارة إلى بركات الدعاء، وإلى أنه كل خير ينـــزل من السماء، وإلى أنه مَن عرَف الحق وثبّت نفسه على الهدى، وتهذّب وصلح فلا يُضيعه الله ويُدخله في عباده المنعَمين. والذى عصى ربه فيكون من الهالكين.

وفي السورة إشارة إلى أن السعيد هو الذي كان فيه جيشُ الدعاء، لا يعبَأ ولا يلغَب، ولا يعبِس ولا ييأس، ويثِق بفضل ربه إلى أن تدركه عناية الله فيكون من الفائزين.

وفي السورة إشارة إلى أن صفات الله تعالى مؤثّرة بقدر إيمان العبد بها، وإذا توجّهَ العارف إلى صفة من صفات الله تعالى وأبصره ببصر روحه، وآمن ثم آمن ثم آمن حتى فنى في إيمانه، فتدخُل روحانية هذه الصفة في قلبه، وتأخذه منه، فيرى السالك بالَه فارغًا من غير الرحمن، وقلبَه مطمئنًّا بالإيمان، وعيشَه حلوًا بذكر المنّان، ويكون من المستبشرين. فتتجلى تلك الصفة له وتستوي عليه حتى يكون قلبُ هذا العبد عرشَ هذه الصفة، وينصبغ القلب بصبغها بعد ذهاب الصبغ النفسانية، وبعد كونه من الفانين.

فإن قلتَ من أين علمتَ أن هذه الإشارة توجد في الفاتحة؟ فاعلَمْ أن لفظ ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ يدل عليه، فإن الله تعالى ما قال: "قُل الحمدُ للهِ"، بل قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾، فكأنه أنطقَ فطرتَنا وأرانا ما كان مخفيًّا في فطرتنا. وهذه إشارة إلى أن الإنسان قد خُلق على فطرة الإسلام، وأُدخِل في فطرته أن يحمد الله ويستيقن أنه رب العالمين، ورحمن، ورحيم، ومالك يوم الدين. وأنه يُعين المستعين ويَهدي الداعين. فثبت من ههنا أن العبد مجبولٌ على معرفة ربه وعبادته، وقد أُشرِب في قلبه محبّته، فتظهر هذه الحالة بعد رفع الحجب، وتُجري ذِكر الله تعالى على اللسان من غير اختيار وتكلّف، وتنبت شجرة المعارف وتثمر وتؤتي أكله• كل حين.

وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة أخرى، وهو أن الله تعالى خلَق الآخرين مشاكِلين بالأولين. فإذا اتصلت أرواحهم بأرواحهم بكمالِ الاقتداء ومناسبةِ الطبائع، فينـــزل الفيض من قلوبهم إلى قلوبهم، ثم إذا تمّ إفضاء المستفيض إلى المفيض وبلغ الأمر إلى غاية الوصلة، فيصير وجودهما كشيء واحد، ويغيب أحدهما في الآخر، وهذه الحالة هي المعبَّرُ عنها بالاتحاد، وفي هذه المرتبة يُسمى السالك في السماء تسميةَ الأنبياء لمشابَهته إياهم في جوهرهم وطبعهم كما لا يخفى على العارفين.

• سهو، والصحيح: "أُكُلها". (الناشر)

وحاصل الكلام أن الله تعالى يُبشّر لأمة نبيّنا ﷺ، فكأنه يقول يا عبادِ إنكم خُلقتم على طبائع المنعَمين السابقين، وفيكم استعداداتهم، فلا تُضيعوا الاستعدادات، وجاهِدوا لتحصيل الكمالات، واعلموا أن الله جوّادٌ كريم وليس ببخيلٍ ضنين. ومن ههنا يُفهَم سِرُّ نزول المسيح الذي يختصم الناس فيه.. فإن عبدًا من عباد الله إذا اقتدى هدي المهتدين، وتبِع سنن الكاملين، وتأهَّبَ للانصباغ بصبغ المهدِيّين، وعطَف إليهم بجميع إرادته وقوّته وجَنانه، وأدّى شرط السلوك بحسب إمكانه، وشَفَعَ الأقوال بالأعمال والمقالَ بالحال، ودخل في الذين يتعاطون كأس المحبة للقادر ذي الجلال، ويقتدحون زنادَ ذِكر الله بالتضرع والابتهال، ويبكون مع الباكين.. فهنالك يفور بحر رحمة الله ليُطهّره من الأوساخ والأدران، ولترويه• بإفاضة التهتان، ثم يأخذ يدَه ويُرقّيه إلى أعلى مراتب الارتقاء والعرفان، ويُدخله في الذين خلوا من قبله من الصلحاء والأولياء والرسل والنبيين، فيُعطي كمالا كمثل كمالهم، وجمالاً كمثل جمالهم، وجلالاً كمثل جلالهم، وقد يقتضي الزمان والمصلحة أن يُرسل هذا الرجلَ على قدم نبي خاص، فيُعطي له علْمًا كعلمه، وعقلا كعقله، ونورًا كنوره، واسمًا كاسمه، ويجعل الله أرواحهما كمرايا متقابلة، فيكون النبي كالأصل، والولي كالظل، من مرتبته يأخذ ومن روحانيته يستفيد، حتى يرتفع منهما الامتيازُ والغَيرية، وتَرِدُ أحكامُ

• سهو، والصحيح: "ليرويه". (الناشر)

الأول على الآخر، ويصيران كشيء واحدٍ عند الله وعند مَلَئه الأعلى، وينـــزل على الآخر إرادةُ الله وتصريفه إلى جهة، وأمرُه ونهيه بعد عبوره على روح الأول، وهذا سرٌّ من أسرار الله تعالى لا يفهمه إلا من كان من الروحانيين.

واعلم أن ذلك الرجل الذي يتشابه قلبه بقلب نبي بمشابهة قوية شديدة تامة كاملة لا يأتي إلا إذا اشتدت الضرورة لمجيئه، فلما قامت الضرورة لوجود مثل ذلك الرجل.. يستأثر الله عبدا من عباده لهذا الأمر، فيدانيه رحمته كما كانت دانت مُورِثه، وينـــزل عليه سرّ روحه وحقيقة جوهره، وصفاء سيرته وشأن شمائله، ويجعل إرادته في إراداته، وتوجهاته في توجهاته، حتى يتجلى فيه جميع شؤون النبي المشبه به ويصير مغمورا في معنى الاتحاد، فيصيران حقيقة واحدة يقع عليهما اسم واحد، ويُنسَبون إلى مثال واحد، كأن النبي المشبه به نزل من السماء إلى أهل الأرضين. فهذا معنى قولِ النبي ﷺ في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو الحق لا يُخالف القرآن ولا يُعارضه، وقد مضى مثله في الأولين. فلا تجادِلْ بغير الحق ولا تكن من المنكرين. قد تُوُفِّي عيسى كما تُوُفِّي الذين خلوا من قبله وجاءوا من بعده. فلا تَخَفْ قوما تركوا كتاب الله ونصوصه، وآثروا غير القرآن على القرآن، وآثروا الشك على اليقين، وخَفِ اللهَ وقَهْرَه واعتزِلْ تلك الفرقَ كلها واعتصِمْ بحبل الله المتين. ومن صرَف عِنان التوجه

إلى هذه الآية وأمعنَ فيه[٥] حق الإمعان، فيرى أنها شاهد على بياننا هذا ويكون من المذعنين.

فلا تعذلوني بعد ما قلتُ سرَّه وأثبتُّه بدلائل الفرقانِ
وقد بانَ برهاني بقولٍ واضحٍ وأنار صدقي عند ذي العرفانِ
وعليك بالصدق النقيّ وسُبلِه ولو أنه ألقاك في النيرانِ

ثم اعلم أن لله تعالى صفات ذاتية ناشئة من اقتضاء ذاته، وعليها مدار العالمين كلها، وهي أربعة: (١) ربوبية (٢) ورحمانية (٣) ورحيمية (٤) ومالكية، كما أشار الله تعالى إليها في هذه السورة وقال: (١) رَبِّ العالمينَ (٢) الرَّحْمَنِ (٣) الرَّحِيمِ (٤) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. فهذه الصفات الذاتية سابقة على كل شيء ومحيطة بكل شيء، ومنها وجودُ الأشياء واستعدادها، وقابليتها ووصولها إلى كمالاتها. وأما صفة الغضب فليست ذاتية لله تعالى، بل هي ناشئة من عدم قابلية بعض الأعيان للكمال المطلق، وكذلك صفة الإضلال لا يبدو إلا بعد زيغ الضالين.

وأما حصر الصفات المذكورة في الأربع فنظرًا على العالم الذي يوجد فيه آثارها. ألا ترى أن العالم كله يشهد على وجود هذه الصفات بلسان الحال، وقد تجلت هذه الصفات بنحوٍ لا يشك فيها

---

[٥] *سهو، والصحيح: "فيها". (الناشر)*

بصيرٌ إلا من كان من قوم عمين. وهذه الصفات أربعٌ إلى انقراض النشأة الدنيوية، ثم تتجلى من تحتها أربع أخرى التي من شأنها أنها لا تظهر إلا في العالم الآخر، وأوّلُ مَطالعِها عرشُ الرب الكريم الذي لم يتدنس بوجودِ غير الله تعالى وصار مظهرًا تامًّا لأنوار رب العالمين، وقوائمه أربعٌ: ربوبية ورحمانية ورحيمية ومالكية يوم الدين. ولا جامعَ لهذه الأربع على وجه الظلّيّة إلا عرشُ الله تعالى وقلبُ الإنسان الكامل، وهذه الصفات أمهات لصفات الله كلها، ووقعت كقوائم العرش الذي استوى الله عليه، وفي لفظ الاستواء إشارة إلى هذا الانعكاس على الوجه الأتم الأكمل من الله الذي هو أحسن الخالقين. وتنتهي كل قائمة من العرش إلى مَلَكٍ هو حاملُها، ومدبّرُ أمرها، ومواردُ تجلياتها، وقاسمُها على أهل السماء والأرضين. فهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ *، فإن الملائكة يحملون صفاتٍ فيها حقيقة عرشية. والسر في ذلك أن العرش ليس شيئا من أشياء الدنيا، بل هو برزخ بين الدنيا والآخرة، ومبدأٌ قديم للتجليات الربانية والرحمانية والرحيمية والمالكية لإظهار التفضلات وتكميل الجزاء والدين. وهو داخلٌ في صفات الله تعالى، فإنه كان ذا العرش من قديم، ولم يكن معه شيء، فكُنْ من المتدبرين.

* الحاقة: ١٨

وحقيقة العرش واستواء الله عليه سرٌّ عظيم من أسرار الله تعالى وحكمةٌ بالغة ومعنى روحاني، وسُمِّيَ عرشًا لتفهيم عقول هذا العالم ولتقريب الأمر إلى استعداداتهم، وهو واسطة في وصول الفيض الإلهي والتجلي الرحماني من حضرة الحق إلى الملائكة، ومن الملائكة إلى الرسل. ولا يقدَح في وحدته تعالى تكثُّرُ قوابلِ الفيض، بل التكثر ههنا يوجب البركات لبني آدم، ويعِينهم على القوة الروحانية، وينصرهم في المجاهدات والرياضات الموجبة لظهور المناسبات التي بينهم وبين ما يصلون إليه من النفوس كنفس العرش والعقول المجردة إلى أن يصلون[٥] إلى المبدأ الأول وعلّة العلل. ثم إذا أعان السالكَ الجذباتُ الإلهية والنسيمُ الرحمانية، فيقطع كثيرا من حجبه، وينجيه من بُعد المقصد وكثرة عقباته وآفاته، وينوِّره بالنور الإلهي ويُدخله في الواصلين. فيكمل له الوصول والشهود مع رؤيته عجائبَ المنازل والمقامات. ولا شعورَ لأهل العقل بهذه المعارف والنكات، ولا مَدخَل للعقل فيه، والاطلاعُ بأمثال هذه المعاني إنما هو من مشكاة النبوة والولاية، وما شمّت[◈] العقل رائحته، وما كان لعاقل أن يضع القدم في هذا الموضع إلا بجذبة من جذبات رب العالمين.

وإذا انفكّت الأرواح الطيبة الكاملة من الأبدان، ويتطهرون على وجه الكمال من الأوساخ والأدران، يُعرَضون على الله تحت العرش

---

[٥] سهو، والصحيح: "يصلوا". (الناشر)

[◈] سهو، والصحيح: "شمّ". (الناشر)

بواسطة الملائكة، فيأخذون بطور جديد حظًّا من ربوبيته يغاير ربوبيةً سابقة، وحظًّا من رحمانية مغايرَ رحمانيةٍ أولى، وحظًّا من رحيمية ومالكية مغايرَ ما كان في الدنيا. فهنالك تكون ثماني صفات تحملها ثمانية من ملائكة الله بإذن أحسن الخالقين. فإن لكل صفة مَلَك مُوَكَّلٌ قد خُلق لتوزيع تلك الصفة على وجه التدبير ووضعها في محلها، وإليه إشارة في قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾* ، فتدبَّرْ ولا تكُنْ من الغافلين.

وزيادة الملائكة الحاملين في الآخرة لزيادة تجلياتٍ ربانية ورحمانية ورحيمية ومالكية عند زيادة القوابل، فإن النفوس المطمئنة بعد انقطاعها ورجوعها إلى العالم الثاني والرب الكريم تترقى في استعداداتها، فتتموج الربوبية والرحمانية والرحيمية والمالكية بحسب قابلياتهم واستعداداتهم كما تشهد عليه كشوف العارفين. وإن كنت من الذين أُعطيَ لهم حظٌّ من القرآن، فتجد فيه كثيرا من مثل هذا البيان، فانظرْ بالنظر الدقيق لتجد شهادة هذا التحقيق، من كتاب الله رب العالمين.

ثم اعلم أن في آية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة عظيمة إلى تزكية النفوس من دقائق الشرك واستئصال أسبابها، ولأجل ذلك رغّب الله في الآية في تحصيل كمالات الأنبياء واستفتاح أبوابها، فإن أكثر الشرك قد جاء في الدنيا

* *النازعات:* ٦

من باب إطراء الأنبياء والأولياء، وإن الذين حسبوا نبيهم وحيدا فريدا، ووحده لا شريك له كذات حضرة الكبرياء، فكان مآل أمرهم أنهم اتخذوه إلهًا بعد مدة، وهكذا فسدت قلوب النصارى من الإطراء والاعتداء. فالله يشير في هذه الآية إلى هذه المَفسدة والغواية، ويومئ إلى أن المنعَمين من المرسَلين والنبيين والمحدَّثين إنما يُبعَثون ليصطبغ الناس بصبغ تلك الكرام، لا أن يعبدوهم ويتخذوهم آلهة كالأصنام، فالغرض من إرسال تلك النفوس المهذَّبة ذوي الصفات المطهرة، أن يكون كلٌّ متّبع قريعَ تلك الصفات، لا قارِعَ الجبهةِ على هذه الصَّفاة. فأومأ الله في هذه الآية لأولي الفهم والدراية إلى أن كمالات النبيين ليست ككمالات رب العالمين، وأن الله أحدٌ صمدٌ وحيدٌ لا شريك له في ذاته ولا في صفاته، وأما الأنبياء فليسوا كذلك، بل جعل الله لهم وارثين من المتّبعين الصادقين، فأُمّتُهم وُرثاؤهم.. يجدون ما وجد أنبياؤهم إن كانوا لهم متبعين. وإلى هذا أشار في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾*، فانظرْ كيف جعَل الأُمّةَ أحبّاءَ الله بشرط اتّباعهم واقتدائهم بسيد المحبوبين.

وتدل آية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أن تُراث السابقين من المرسَلين والصدّيقين حقٌّ واجبٌ غيرُ مجذوذ ومفروضٌ للاحقين من المؤمنين الصالحين إلى يوم الدين. وهم

* *آل عمران:٣٢*

يرثون الأنبياء ويجدون ما وجدوا من إنعامات الله. وهذا هو الحق فلا تكن من الممترين.

وأما سرُّ ذلك التوارث ولِمِّيّة المورِث والوارث، فتنكشف من تلك الآية التي تُعلّم التوحيد، وتُعظّم الرب الوحيد، فإن الله المعين وأرحم الراحمين، إذا علّم دقائق التوحيد وبالَغَ في التلقين، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فأراد عند هذا التعليم والتفهيم أن يقطع عروقَ الشرك كلها فضلاً من لدنه ورحمةً منه على أُمّة خاتم النبيين، لينجّي هذه الأُمّةَ من آفات وَرَدَت على المتقدمين. فعلَّمنا دعاءً مَبَرَّةً وعطاءً وجعَلَنا منه من المستخلصين. فنحن ندعو بتعليمه، ونطلب منه بتفهيمه، فرحين برِفْده، مفصحين بحمده، قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين﴾. ونحن نسأل الله لنا في هذا الدعاء كلَّ ما أُعطيَ للأنبياء من النعماء، ونسأله أن نثبت كالأنبياء على الصراط، ونتجافى عن الاشتطاط، وندخل معهم في مربَع حظيرة القدس، متطهرين من كل أنواع الرجس، ومبادرين إلى ذَرَى ربِّ العالمين. فلا يخفى أن الله جعلنا في هذا الدعاء كأظلال الأنبياء، وأورثَنا وأعطانا المعلوم والمكتوم، والمعكوم والمختوم، ومِن كل الآلاء والنعماء، فاحتملْنا منها وِقْرَنا، ورجعْنا بما يسدّ فقرنا، وسالت أوديةٌ بقدرها، فأُحْلِلْنا محلَّ الفائزين. وهذا هو سِرّ إرسال الأنبياء

وبعثِ المرسلين والأصفياء، لنُصبَّغ بصبغ الكرام، وننتظم في سلك الالتئام، ونرث الأولين من المقرَّبين المنعَمين.

ومع ذلك قد جرت سُنّة الله أنه إذا أعطى عبدًا كمالاً، وطفق الجُهّال يعبدونه ضلالاً، ويُشركونه بالرب الكريم عزةً وجلالاً، بل يحسبونه ربًّا فعّالاً، فيخلق اللهُ مِثْلَه، ويُسمّيه بتسميته، ويضع كمالاته في فطرته، وكذلك يجعل لغيرته ليُبطل ما خطر في قلوب المشركين. يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل وهم من المسؤولين. يجعل من يشاء كالدَّرّ السائغ للاغتذاء، أو كالدُّرّة البيضاء في اللمعان والصفاء، ويسوق إليه شربًا من التسنيم، ويضمّخه بالطِّيب العميم، حتى يُسفِر عن مَرْأى وسيم، وأَرَج نسيم للناظرين.

فالحاصل أنه تعالى أشار في هذا الدعاء لطُلاب الرشاد إلى رحمته العامّة والوداد، فكأنه قال إنني رحيم.. وسعتْ رحمتي كل شيء.. أجعل بعضَ العباد وارثًا لبعض من التفضل والعطاء، لأسُدّ باب الشرك الذي يَشيع من تخصيص الكمالات ببعض أفراد من الأصفياء. فهذا هو سِرُّ هذا الدعاء، كأنه يُبشّر الناس بفيض عامٍ، وعطاءٍ شاملٍ لأنامٍ، ويقول إني فيّاض وربّ العالمين، ولستُ كبخيلٍ وضنينٍ. فاذكروا بيتَ فيضي وما ثَمَّ، فإن فيضي قد عمَّ وتمَّ، وإن صراطي صراط قد سُوِّيَ ومُدَّ، لكل من نهض وأعتدَ واستعدّ، وطلب كالمجاهدين. وهذه نكتة عظيمة في آية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهي إزالة الشرك وسدُّ

أبوابه، فالسلام على قوم استُخلِصوا من هذا الشرك وعلى مَن لديهم، وعلى كل مَن تبِعهم من الطالبين الصادقين.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي أن الصراط المستقيم هو النعمة العظمى، ورأس كل نعمة وبابُ كل ما يُعطى، وينتاب العبد نعمَ الله مُذْ أُعطِيَ له هذه الدولة الكبرى ومُلكٌ لا يبلى. ومن تأهّبَ لهذه النعمة ووُفِّقَ للثبات عليها، فقد دُعِيَ إلى كل أنواع الهدى، ورأى العيشَ النضير والنور المنير بعد ليالي الدجى. نجّاه الله من كل الهفوات قبل الفوات، وأدخله في زمر التُقاة بعد مُقاناة العُصاة، وأراه سبل الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وأما حقيقة الصراط المستقيم، التي أُريدتْ في الدين القويم، فهي أن العبد إذا أحبّ ربَّه المنّان، وكان راضيا بمرضاته وفوّض إليه الروح والجَنان، وأسلم وجهه لله الذي خلق الإنسان، وما دعا إلا إياه، وصافاه وناجاه، وسأله الرحمةَ والحنان، وتنبّهَ من غشيه، واستقام في مشيه، وخشِي الرحمن، وشغَفه الله حُبًّا وأعانَ، وقوّى اليقين والإيمانَ، فمالَ العبد إلى ربه بكل قلبه، وإرْبه وعقله، وجوارحه وأرضه وحقله، وأعرضَ عما سواه، وما بقِي له إلا ربه وما تبِع إلا هواه، وجاءه بقلب فارغ عن غيره، وما قصَد إلا اللهَ في سبل سيره، وتاب من كل إدلال واغترار بمال وذي مال، وحضَر حضرةَ الرب كالمساكين، ووَذَرَ العاجلةَ وألغاها، وأحبَّ الآخرة وابتغاها، وتوكّلَ على الله، وكان لله، وفنى في الله، وسعى إلى الله

كالعاشقين.. فهذا هو الصراط المستقيم الذي هو منتهى سير السالكين، ومقصد الطالبين العابدين. وهذا هو النور الذي لا يحلّ الرحمةُ إلا بعد حلوله، ولا يحصل الفلاحُ إلا بعد حصوله، وهذا هو المفتاح الذي يُناجي السالكُ منه بذات الصدور، وتُفتح عليه أبواب الفراسة، ويُجعل مُحدَّثًا من الله الغفور.

ومَن ناجى ربَّه ذاتَ بكرة بهذا الدعاء بالإخلاص وإمحاض النيّة، ورعاية شرائط الاتّقاء والوفاء، فلا شك أنه يحلّ محلّ الأصفياء والأحبّاء والمقرّبين. ومن تأوّهَ آهةَ الثكلان في حضرة الربّ المنّان، وطلَب استجابةَ هذا الدعاء من الله الرحمن، خاشعا مبتهلا وعيناه تذرفان، فيُستجاب دعاؤه ويُكرم مثواه، ويُعطى له هداه، وتُقوَّى له عقيدتُه بالدلائل المنيرة كالياقوت، ويُقوَّى له قلبُه الذي كان أوهنَ من بيت العنكبوت، ويُوفَّق لتوسعة الذَّرْع ودقائق الورع، فيُدعى إلى قِرى الروحانيين، ومطائب الربانيين. ويكون في كل حال غالبا على هَوًى مغلوب، ويقوده برعاية الشرع حيث يشاء كأشجع راكب على أطوعِ مركوب، ولا يبغي الدنيا ولا يتَعَنَّى لأجلها، ولا يسجد لعِجْلها، ويتولاه الله وهو يتولى الصالحين. وتكون نفسه مطمئنة ولا تبقى كالمبيد المُضِلّ، ولا تُحَمْلقُ حملقةَ الباز المُطِلّ، ويرى مقاصدُ سلوكه كالكرام، ولا تكون سُحبه كالجَهام، بل يشرب كل حين من ماء مَعين.

وحثَّ الله عباده على أن يسألوه إدامةَ ذلك المقام، والتثبّت عليه والوصول إلى هذا المرام، لأنه مقام رفيع، ومرام منيع، لا يحصل لأحد إلا بفضل ربه، لا بجهد نفسه، فلا بد من أن يضطر العبد لتحصيل هذه النعمة إلى حضرة العزة، ويسأله إنجاحَ هذه المُنْية بالقيام والركوع والسجدة والتمرغ على تُرْب المَذلّة، باسطًا ذيل الراحة، ومتعرضًا للاستماحة، كالسائلين المضطرين.

وجملةُ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةٌ إلى رعاية حسن الآداب، والتأدب مع ربّ الأرباب، فإن للدعاء آدابًا، ولا يعرفها إلا من كان توّابًا، ومن لا يُبالي الآداب، فيغضب الله عليه إذا أصرّ على الغفلة وما تاب، فلا يرى من دعائه إلا العقوبة والعذاب، فلأجل ذلك قلّ الفائزون في الدعاء، وكثر الهالكون لِحُجب العُجْب والغفلة والرياء. وإن أكثر الناس لا يدعون إلا وهم مشركون، وإلى غير الله متوجهون، بل إلى زيد وبكر ينظرون، فالله لا يقبل دعاء المشركين، ويتركهم في بيدائهم تائهين، وإن حَبْوة الله قريب من المنكسرين. وليس الداعي الذي ينظر إلى أطراف وأنحاء، ويُختلب بكل برق وضياء، ويريد أن يُترِع كُمَّه ولو بوسائل الأصنام، ويعلو كلَّ ربوة راغبا في حَبْوة، ويبغي معشوق المرام ولو بتوسل اللئام، والفاسقين. بل الداعي الصادق هو الذي يتبتل إلى الله تبتيلا، ولا يسأل غيره فتيلا، ويجيء اللهَ كالمنقطعين المستسلمين، ويكون إلى الله سيرُه، ولا يعبأ بمن هو غيرُه، ولو كان من الملوك والسلاطين. والذي يكبّ

على غيره، ولا يقصد الحق في سيره، فهو ليس من الداعين الموحّدين، بل كزاملة الشياطين، فلا ينظر الله إلى طلاوة كلماته، وينظر إلى خِبْثة نيّاته، وإنما هو عند الله، مع حلاوة لسانه وحسن بيانه، كمثل روثٍ مفضَّض، أو كَنيفٍ مبيَّض، قد آمنتْ شفتاه وقلبُه من الكافرين. فأولئك الذين غضب الله عليهم وهم المرادون من قوله: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. إنهم دُعُوا إلى سُـــبُل الحق فتركوها بعد رؤيتها، وتَخيَّروا المفاسد بعد التنبه على خِبْثتها، وانطلقوا ذات الشمال وما انطلقوا ذات اليمين، وإنهم ركنوا إلى المَيْنِ وما بقي إلا قِيْدَ رُمَحَيْنِ، وعدموا الحق بعد ما كانوا عارفين.

وأما الضالون الذين أُشير إليهم في قوله ﷻ: ﴿الضَّالِّينَ﴾ فهم الذين وجدوا طريقا طامسًا في ليل دامس، فزاغوا عن المحجّة قبل ظهور الحجّة، وقاموا على الباطل غافلين. وما كان مصباح يؤمّنهم العثارَ، أو يبيّن لهم الآثار، فسقطوا في هوّة الضلال غير متعمدين. ولو كانوا من الداعين بدعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لحفظهم ربُّهم ولأراهم الدين القويم، ولنجّاهم من سبل الضلالة، ولهداهم إلى طرق الحق والحكمة والعدالة، ليجدوا الصراط غير ملومين. ولكنهم بادروا إلى الأهواء، وما دعَوا ربَّهم للاهتداء، وما كانوا خائفين، بل لوَّوا رؤوسهم مستكبرين. وسرَتْ حُمَيّا العُجْب فيهم، فرفضوا الحق لهفواتٍ خرجت مِن فيهم، ولفظتْهم تعصباتُهم إلى بوادي الهالكين.

فالحاصل أن دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يُنجي الإنسان من كل أَوَدٍ ويُظهِر عليه الدين القويم، ويُخرجه من بيتٍ قفرٍ إلى رياض الثمر والرياحين. ومن زاد فيه إلحاحا، زاده الله صلاحا. والنبيون آنسوا منه أُنْسَ الرحمن، فما فارقوا الدعاء طُرفةَ عين إلى آخر الزمان. وما كان لأحد أن يكون غنيًا عن هذه الدعوة، ولا معرضا عن هذه المُنْية، نبيًّا أو كان من المرسَلين. فإن مراتب الرشد والهداية، لا تتم أبدًا بل هي إلى غير النهاية، ولا تبلغها أنظارُ الدراية، فلذلك عَلّمَ الله تعالى هذا الدعاء لعباده، وجعَله مدار الصلاة ليتمتعوا برشاده، وليُكمّل الناس به التوحيدَ، وليذكُروا المواعيد، وليُستَخلصوا من شرك المشركين.

ومن كمالات هذا الدعاء أنه يعمّ كلَّ مراتب الناس، وكلَّ فرد من أفراد الأناس. وهو دعاء غير محدود لا حدَّ له ولا انتهاءَ، ولا غايَ ولا أرجاءَ، فطوبى للذين يداومون عليه بقلبٍ دامي القُرْح، وبروح صابرة على الجُرْح، ونفسٍ مطمئنة كعباد اللهً العارفين. وإنه دعاء تضمَّنَ كلَّ خير وسلامة، وسداد واستقامة، وفيه بشارات من الله رب العالمين.

وقيل إن الطريق لا يُسَمَّى صراطًا عند قوم ذوي قلب ونور، حتى يتضمن خمسة أمور من أمور الدين وهي: (١) الاستقامة (٢) والإيصال إلى المقصود باليقين (٣) وقرب الطريق (٤) وسَعَتُه للمارّين (٥) وتعيينه طريقا للمقصود في أعين السالكين. وهو تارة

يُضاف إلى الله إذ هو شرَعه وهو سوّى سُبُلَه للماشين. وتارة يُضاف إلى العباد لكونهم أهل السلوك والمارّين عليها والعابرين.

والآن نرى أن نُوازِن هذا الدعاء بالدعاء الذي علّمه المسيحُ في الإنجيل، ليتبين لكل مُنْصف أيُّهما أشفى للعليل، وَأدرأُ للغليل، وأرفعُ شأنا، وأتمُّ برهانا، وأنفع للطالبين. فاعلم أن في إنجيل لوقا قد كُتب في الإصحاح الحادي عشر أن المسيح عَلّم الدعاء هكذا (٢)* "فقال لهم (يعني للحواريين): متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسْمُك، ليأت ملكوتُك، لتكُنْ مشيئتك كما في السماوات كذلك على الأرضين. خُبْزَنا كفافَنا أعطِنا كل يوم واغفرْ لنا خطايانا، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يُذنب إلينا (يعني نغفر للمذنبين). ولا تُدخلنا في تجربة لكن نَجِّنا من الشرير." هذا دعاء علّم للمسيحيين.

فاعلم أنه دعاء يفرّط في الصفات الربانية، وكذلك ما يحيط على مقاصد الفطرة الإنسانية، بل يزيد سَوْرة الحسرة الروحانية، ويحرّك القُوى لطلب الأهواء الفانية، والشهوات المتفانية، مع الذهول عن سعادات يوم الدين. ومِن جملة جُمَله فقرةٌ.. أعني **"ليَتقدّسْ اسمك"**، فانظر فيها بعقلك وفهمك.. هل تجده حَرِيًّا بشأن الأكمل الذي ليستْ له حالة منتظَرة من حالات الكمال، ولا مرتبة مترقَّبة من مراتب التقدس والجلال؟ فإن المحامد والتقدسات كلها ثابتة لحضرة

* *أي الفقرة الثانية من الإصحاح المذكور. (الناشر)*

العزة، ولا يُنتَظَر شيء منها في الأزمنة الآتية، وهذا هو تعليم القرآن، وتلقين كلام الله الرحمن، كما مرّ كلامنا في هذا البيان. ومن أقبلَ على الفرقان المجيد، وفهمه وتدبَّرَ ونظَره بالنظر السديد، فينكشف عليه أن الفرقان قد أكمل في هذا الأمرِ البيانَ، وصرّح بأن لله كمالا تامًّا، وكل كمالٍ ثابت له بالفعل وليس فيه كلام، وتجويز الحالة المنتظَرة له جهلٌ وظلم واجترام. وأما الإنجيل فيجعل البارئ عز اسمه محتاجا إلى الحالة المنتظَرة، وضاجرًا لكمالات مفقودة غير الموجودة، ولا يقبَل وجودَ كمال شجرته، بل يُظهر الأمانيَ لإيناع ثمرته، وليس قائلَ استنارةِ بدره، بل ينتظر زمانَ عُلُوّ قدره. كأن رَبَّ الإنجيل واجِمٌ من فقد المرادات، وعاجز عن إمضاء الإرادات. وكم من ليلة باتَها ينتظر كمالاتٍ، ويترقب تغيُّرَ حالات، حتى يئس من أيام رشاده، وأقبلَ على عباده ليتمنوا له حصول مراده، وليعقدوا الهمم لزوال كَمَده، وعلاج رَمَده. سبحان ربنا إنْ هذا إلا بُهتان مبين. إنما أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. ما لِلْبَلْبالِ ورَبٍّ ذي الجلال، رب العالمين؟

ثم دعاء المسيح دعاءٌ لا أثر فيه من غير التنـــزيه.. كأنه يقول إن الله منـــزّه عن الكذب والتمويه، ولكن لا توجد فيه كمالات أخرى، ولا من الصفات الثبوتية أثرٌ أدنى، فإن التنـــزيه والتقديس من الصفات السلبية كما لا يخفى على ذوى المعرفة والبصيرة، وأما الصفات السلبية فهي لا تقوم مقام الإثبات كما ثبت عند الثقات.

وأما ما علّمَنا القرآن من الدعاء، فهو يشتمل على جميع صفات كاملة توجد في حضرة الكبرياء، ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، كيف أحاط صفات الله جُموعَها، وتأبّطَ أصولها وفروعها؟ وأشار في: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ أن الله ذاتٌ لا تُحصى صفاته، ولا تُعَدّ كمالاته، وأشار في: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن وَبْلَ ربوبيته يعمّ السماوات والأرضين، والجسمانيين والروحانيين. وأشار في: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أن الرحمة بجميع أنواعها من الله القيّوم القديم، والخلّاق الكريم، وأشار في قوله: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن مالكَ المجازاة هو الله لا غيره من المخلوقين، وأن أبحُر المجازاة جارية وهي تمرّ مَرَّ السحاب كل حين، وكل ما يرى عبدٌ من فضل الله وإحساناته بعد أعمالٍ صالحة، وصِدْقِه وَصَدَقاته، فإنما هو صنيعة مجازاته. ففي هذه المحامد إشارات رفيعة عالية، ودلالات لطيفة متعالية، على كل كمال لحضرة الله جامعِ كلِّ جمال وجلال. ثم من المعلوم أن اللام في: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ للاستغراق، فهو يشير إلى أن المحامد كلها لله بالاستحقاق.

وأما دعاء الإنجيل.. أعني "**ليتقدسْ اسمك**" فلا يشير إلى كمال، بل يخبر عن خطرات زوال، ويُظهِر الأماني لتقديس الرحمن، كأن التقدس ليس له بحاصل إلى هذا الآن. فما هذا الدعاء إلا من نوع الهذيان، فإنك تعلم أن الله قُدّوسٌ من الأزل إلى الأبد، كما هو يليق

بالأحد الصمد، فهو منـــزه ومقدس من كل التدنسات، في جميع الأوقات، إلى أبد الآبدين، وليس محروما ومن المنتظرين.

ثم قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ ردٌّ لطيف على الدهريين والملحدين والطبيعيين الذين لا يؤمنون بصفات الله المجيد، ويقولون إنه كعِلَّةٍ موجبة وليس بالمدبّر المُريد، ولا يوجد فيه إرادة كالمنعمين والمعطين. فكأنه يقول كيف لا تؤمنون بربّ البريّة وتكفرون بربوبيته الإرادية، وهو الذي يُربّي العالمين، ويغمر بنواله، ويحفظ السماوات والأرض بقدرته وجلاله، ويعرف من أطاعه ومن عصا، فيغفر المعاصي أو يؤدّب بالعصا، ومن جاءه مطيعًا فله جنّتان، وحفّتْ به فرحتان، فرحة تصيبه من اسم الرحيم، وأخرى من الرحمن القديم، فيُجزَى جزاءً أوفى من الله الأعلى، ويُدخَل في الفائزين.

ولا شك أن هذه الصفات تجعل الله مستحقًّا للعبادة، معطيًا من عطايا السعادة، وأما التقديس وحده، كما ذُكر في الإنجيل، فلا يُحرّك الروحَ للعبادة، بل يتركها كالنائم العليل.

وأما سرُّ هذا الترتيب الذي اختاره في الفاتحة ربُّنا المجيد ذو المجد والعزة، وذكر المحامد قبل ذكر الدعاء والعبادة، فاعلم أنه فعَل ذلك ليذكّر عبادَه عظمةَ صفات البارئ ذي المجد والعلاء قبل الدعاء، ويشير إلى أنه هو المولَى لا مُنعمَ إلا هو، ولا راحِمَ إلا هو، ولا مُجازِيَ إلا هو، ومنه يأتي كلُّ ما يأتي العباد من الآلاء والنعماء.

وهذا الترتيب أحسنُ وللروح أنفع، فإنه يُظهِرُ على السعيد منن الله الرحيم، ويجعله مستعدًّا ومقبِلاً على حضرة القدير الكريم، ويَظهَر منه تموُّجٌ تامٌّ في أرواح الطلباء، كما لا يخفى على أهل الدهاء. وأما تخصيص ذكر الربوبية والرحمانية والرحيمية والمالكية في الدنيا والآخرة.. فلأجل أن هذه الصفات الأربعة أُمّهاتٌ لجميع الصفات المؤثّرة المفيضة، ولا شك أنها محرّكات قويّة لقلوب الداعين.

ثم الإنجيل يذكر الله تعالى باسم الأب، والقرآن يذكره باسم الرب، وبينهما بون بعيد، ويعلَمه من هو زكي وسعيد، وإن لم يعلمه من كان من الجاهلين. فإن لفظ الأب لفظٌ قد كثر استعماله في المخلوقين، فنَقْلُه إلى الرب تعالى فعلٌ فيه رائحة من الإشراك، وهو أقرب للإهلاك كما لا يخفى على المتدبرين.

ثم اعلم أن شكر المحسن المنَّان أمرٌ معقول مسلَّم عند ذوي العقول والعرفان، وإذا كان المحسن مع إحسانه العام ورحمه التام، خالقَ الأشياءِ وقيّوم العالم من الابتداء إلى الانتهاء، وكان في يده كل أمر الجزاء، فيضطر الإنسان طبعًا ليرجع إلى جنابه، ويتذلل على بابه، وينجو من تبابه، وإذا وجده فلا يَتأوَّبُه عنده هَمٌّ، ولا يُفزِعه وَهْمٌ، ويكون من المطمئنين. وهذا الأمر داخلٌ في فطرته، ومركوز في جبِلّته، ومتنقشٌ في مُهْجته، أنه يطلُب صاحبَ هذه الصفات عند التَرددات، ويؤُمّ به المخرج من المشكلات. والطالبون يتعاطون بذكره كأسَ المنافثة، ويقتدحون لطلبه زنادَ المباحثة، ويجوبون

البراري والفلوات، ويطلبون أثر ذلك الجامع للبركات، وقاضي الحاجات، ويبيتون مجاهدين. فبشّر الله عبادَه أنه هو، وأنه مقصد ملامح عيونهم، ومقصود مرامي لحظهم، ومدار شؤونهم، فليطلبوه إن كانوا طالبين. ومن هذا المقام يظهَر عظمةُ الفاتحة، وكونُه من الله العلام، فإنها مملوءة من كل دواء، وعلاج لكل داء، ومَنْجَى من كل بلاء، يقوّي الضعفاء، ويبشّر الصلحاء، ويفتح أبواب الخير وسُدَدَه، ويعطي كلَّ ذي رشد رشده، إلا الذي أحاط عليه غباوته وشقاوته فصار من الهالكين.

وانظرْ إلى كمال ترتيب الفاتحة من الله ذي الجلال والعزّة، كيف قدّم ذِكْرَ اسم الله في العبارة، وجعَله سرًّا مجملا لتفاصيل الصفات الأربعة، وزيّن العبارةَ بكمال لطائف البلاغة، ثم أردفَه صفةَ الربوبية العامة، فإن الله كان ككنـــز مخفي من أعين أهل المعرفة، فأوّلُ ما عرَّفه كانت ربوبيتُه بكمال الحكمة والقدرة. ثم ذكَر الله في الفاتحة رحمانية وبعدها رحيمية وقفّاها مالكية، فوضَعها طباقًا، وطبَّقها إشراقا، وجعل بعضها فوق بعض وضعًا، كما كان مدارجها طبعا، وفيه آيات للمتدبرين. وعلّم اللهُ عباده أن يقدّموا هذه المحامد بين يديه، ويسألوا الهداية والاستقامة بعد الثناء عليه، لتكون هذه الصفات وتصوُّرُها سببًا لفور عيون الروحانية، ووسيلة للحضور والذوق والمَواجيد التعبدية، وليُستجاب الدعاء بهذا الحضور، ويكون موجبا لأنواع السرور والنور والبُعد عن المعاصي والفجور، لأن

العبد إذا عرف أنه يعبد ربًّا أحاط ذاتُه جميعَ أنواع المحامد، وهو قادر على أن يستجيب جميع أدعية المحامد، وعرَف أنه ربٌّ عظيم يوجد فيه جميع أنواع الربوبية، ورحمن كريم يوجد فيه جميع أقسام الرحمانية، ورحيم قديم يوجد فيه كل أصناف الرحيمية، ومالِكُ مجازاة يقدر على أن يجزي كل ذي مرتبة في الإخلاص على حسب المرتبة، فيجد ذاتَه عظيمَ الشأن في القدرة، ويجد عظمةَ صفاته خارجةً من الإحاطة، فيسعى إلى بابه، ويبادر إلى جنابه، قائلا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فيجمع في هذا الكلام انكسار العبد وجلال رب العالمين. فهذا الاجتماع المبارك يقطع عرق الاسترابة، ويكون سببا قريبا للاستجابة، فيكون الداعي من المقبولين، بل ممن لا يشقى بهم جليس، ولا يقربهم غُولٌ ولا تلبيس، ولا يخِيب فيهم مظنون، وتُرفَع حُجبهم فلا يُطوى دونهم مكنون، فيطلع على ما حَكَّ في صدور الناس، وعلى أمور سماوية متعالية عن طور العقل والقياس، ويدخل في أهل السرّ والقرب والمكلَّمين. ويكون له الرب الكريم كالخِلّ الودود، والخِدْن المودود، بل أقرب من كل قريب، وأحبَّ من كل حبيب، ويكون كلامه أحلى من كل شربة، وإلهامه ألذّ من كل لذّة، ويدخُل الله في القلب ويشغَفه حُبًّا، وينظر إلى المُحِبِّ فيجعله لُبًّا، ويصبّغه بصبغ المتبتّلين. ويأتيه منه البرهان، والنور واللمعان، والعلم والعرفان، فلا يسعه الكتمان، ولو اختفى في مغارة الأرضين، فسبحان ربِّنا ربِّ الأولين والآخرين.

واعلموا أيها الناظرون والعلماء المستبصرون أن عيسى عليه السلام علّم تمهيدًا قبل الدعاء، والقرآن علّم تمهيدا قبل الدعاء، والفرق بينهما ظاهر على أهل الدهاء، فإن تمهيد القرآن يُحرّك الروح إلى عبادة الرحمن، ويحرّك العباد إلى أن ينتجعوا حضرتَه بإمحاض النيّة وإخلاص الجَنان، ويَظهَر عليهم أنه عينُ كل رحمة وينبوعُ جميع أنواع الحنان، ومخصوص باسم الرب والرحمن والرحيم والديّان، فالذين يطّلعون على هذه الصفات فلا يزايلون أهلَها ولو سقطوا في فلوات الممات، بل يسعون إليه ويوطنون لديه بصدق القلب وصحّة النيّات، ويتراكضون إليه خيلَهم ويسعون كالمشوق، ويضطرم فيهم هوى المعشوق، فلا يناقش أهواءٌ أخرى عند غلبة هوى رب العالمين. فثبت أن في تمهيد هذا الدعاء تحريكا عظيما للعابدين، فإن العبد إذا تدبّرَ في صفات جعَلها الله مقدّمة لدعاء الفاتحة، وعلِم أنها مشتملة على صفات كماله ونُعوت جلاله باستيفاء الإحاطة، ومحرّكة لأنواع الشوق والمحبة، وعلِم أن ربّه مبدأٌ لجميع الفيوض، ومنبع لجميع الخيرات، ودافعٌ لجميع الآفات، ومالكٌ لكل أنواع المجازاة، منه يبدأ الخَلق وإليه يرجع كل المخلوقات، وهو منـــزه عن العيوب والنقائص والسيئات، ومستجمِع لسائر صفات الكمال وأنواع الحسنات، فلا شك أنه يحسَبه مُنجِحَ جميعِ الحاجات، ومُنجيًا من سائر الموبقات، فيكابد في ابتغاء مرضاته كلَّ المصائب، ولو قُتل بالسمّ الصائب، ولا يُعجِزه الكروبُ، ولا يدري ما اللغوب، ويجذبه

المحبوب، ويعلم أنه هو المطلوب، وييسِّر له استقراءَ المسالك لتطلُّب مرضاة المالك، فيجاهد في سبله ولو صار كالهالك، ولا يخشى هولَ بلاء، وينبري لكل ابتلاء، ولا يبقى له من دون حُبِّه الأذكار، ولا تستهويه الأفكار، وينـــزل من مطيّة الأهواء، ليمتطي أفراس الرضاء، ويَضْفِر أَزِمّةَ الابتغاء، ليقطع المسافة النائية لحضرة الكبرياء، ويظلّ أبدًا له مُدانِيًا، ولا يجعل له ثانيا من الأحبّاء، ولا يَعتورُ قلبه بين الشركاء، ويقول يا ربّ تسلَّمْ قلبي، وتكفيني لجذبي وجلبي، ولن يُصبِيني حسن الآخرين.

هذه نتائج تمهيد دعاء الفاتحة، وأما تمهيد دعاء عيسى عليه السلام فقد عرفتَ حقيقته، وما فيه من الآفة، فلا حاجة إلى الإعادة، فتفكَّرْ في إيماضي، وتندَّمْ من زمان ماضي، وكُنْ من التائبين.

ثم بعد ذلك ننظر إلى دعاء علّمه عيسى، وإلى دعاء علّمه ربُّنا الأعلى، ليتبيّن ما هو الفرق بينهما لذي النُّهى، ولينتفع به من كان من الصالحين.

فاعلم أن عيسى عليه السلام علّم دعاءً يتزرّى عليه إنصافنا، أعني: "خُبْزَنا كفافَنا"، وأما القرآن فعافَ ذَكْرَ الخُبز والماء في الدعاء، وعلّمَنا طريق الرشد والاهتداء، وحثَّ على أن نقول: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ونطلب منه الدين القويم، ونعوذ به من طرق المغضوب عليهم والضالين، وأشار إلى أن راحة الدنيا والآخرة تابعةٌ

لطلب الصراط وإخلاص الطاعةز فانظرْ إلى دعاء الإنجيل ودعاء القرآن من الرب الجليل، وكن من المنصفين.

وأما ما جاء في دعاء عيسى ترغيب في الاستغفار، فهو تأكيد لدعاء طلبِ الخبز كأهل الاضطرار، لعل الله يرحم ويعطي خبزا كثيرا عند هذا الإقرار، فالاستغفار تضرُّعٌ لطلب الرغفان، وأصل الأمر هو طلب الخبز من الله المنّان. ويثبُت من هذا الدعاء أن أكثر أُمم عيسى كانوا عشّاق الذهب واللُّجَين، وهاجرِي الحقِّ للحجرَين، وبائعي الدين ببخسٍ من الدراهم، ومختبني خلاصة النضّ وتاركي ذيلِ الرب الراحم، والعاثين عاصين. وحُبِّبَ إليهم أن يتخذوا الطمع شِرعةً، وحُبَّ الدنيا نُجعةً. فاستشرِف الأناجيلَ ليظهَر عليك صدقُ ما قيل، واتّق الرب الجليل، ودَعِ الأقاويل، ولا تحسب الحق الصريح كالمعضلات، واستوضِحْ مني المشكلات، لأُخبرك عن أنباء العُصاة والمنجيات والمهلِكات، ففتِّشِ الحقَّ قبل حُموم الحِمام، وهجوم الآلام، ونزعِ الروح وحصر الكلام، واعلم أن الخير كله في الإسلام، فطوبى للذي ضرب الخيام في هذا المقام، وقوّى يقينَه بالإلهام ووحي الله العلام، وردّاه الله رداءَ الإكرام.

إن المسلمين قوم سجاياهم إعلاءُ كلمة التوحيد، وبذلُ النفس ابتغاءَ مرضاة الله الوحيد، وصلحاؤهم يتأفّفون من الدنيا بل من الإمرة، ولا يتخيرون لأنفسهم إلا وجه رب ذي العزة، ولا يُشجيهم إلا آنُ غفلةٍ مِن ذِكر الحضرة، يتوكلون عليه ويطلبون منه هداه، ولا

يركنون إلى الخَلق بل يبتغون حُباه، ويمشون في الأرض هونًا، ولا يبطِشون جبّارين. وشأنُهم إطالةُ الفكرة، وتحقيق الحق وتنقيح الحِكمة. يراعون في الرياسة تهذُّبَ السياسة، وفي أوان الخصاصة والافتقار آدابَ التبصر والاصطبار. ولا تفاضُل فيهم إلا بتفاضل التقوى والتقاة، ولا ربَّ لهم إلا ربّ الكائنات. وكل ذلك أنوار حاصلة من الفاتحة كما لا يخفى على أهل الفطرة الصحيحة والتجربة. فالحق أن الفاتحة أحاطت كل علم ومعرفة، واشتملت على كلِّ دقيقةِ حقٍّ وحكمة، وهي تجيب كل سائل، وتذيب كل عدو صائل، ويطعم كلَّ نزيلٍ إلى التضيّف مائلٍ، ويسقي الواردين والصادرين. ولا شك أنها تزيل كل شك خيّب، وتجيح كل هم شَيَّبَ، وتعيد كلّ هُدُوٍّ تَغيَّبَ، وتُخجِل كلَّ خصيم نَيَّبَ، ويبشر الطالبين. ولا معالج كمثله لسمّ الذنوب وزيغ القلوب، وهو الموصِل إلى الحق واليقين.

وأما الهداية التي قد أُمِرنا لطلبها في الفاتحة فهو اقتداءُ محامد ذات الله وصفاته الأربعة، وإلى هذا يشير اللام الذي موجود في: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ويعرِفه من أعطاه الله الفهمَ السليم. ولا شك أن هذه الصفات أُمّهات الصفات، وهي كافية لتطهير الناس من الهَنات وأنواع السيئات، فلا يؤمن بها عبد إلا بعد أن يأخذ من كل صفة حظَّه ويتخلق بأخلاق رب الكائنات. فمن استفاض منها فيُفتَح عليه باب عظيم من معرفة الرب المحبوب، وتتجلى له عظمتُه،

فتحصُل الأمانةُ والتنفُّرُ من الذنوب، والسكينةُ والإخبات والامتثال الحقيقي والخشية والأنس والذوق والشوق والمَواجيد الصحيحة والمحبة الذاتية المُفنية المحرقة بإذن الله مُربِّي السالكين.

وهذه كلها ثمرات التدبر في مضامين الفاتحة، فإنها شجرة طيبة تؤتي كلَّ حين أُكُلاً من المعرفة، ويروي من كأس الحق والحكمة، فمن فتَح باب قلبه لقبول نورها، فيدخل فيه نورها، ويطّلع على مستورها، ومن غلّق الباب فدعا ظلمتَه إليه بفعله، ورأى التبابَ ولحِق بالهالكين.

ثم اعلم أن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على أن السعادة كلها في اقتداء صفات رب العالمين. وحقيقةُ العبادة الانصباغُ بصبغ المعبود، وهو عند أهل الحق كمال السعود، فإن العبد لا يكون عبدا في الحقيقة عند ذوي العرفان، إلا بعد أن تصير صفاتُه أظلالَ صفاتِ الرحمن، فمِن أمارات العبودية أن تتولد فيه ربوبيةٌ كربوبية حضرة العزة، وكذلك الرحمانية والرحيمية وصفة المجازاة، أظلالاً لصفات الحضرة الأحدية. وهذا الصراط المستقيم الذي أُمِرنا لنطلبه، والشرعةُ التي أوصينا لنرقُبها مِن كريم ذي الفضل المبين.

ثم لما كان المانع من تحصيل تلك الدرجات الرياءَ الذي يأكل الحسنات، والكبرَ الذي هو رأس السيئات، والضلالَ الذي يُبعِد عن طرق السعادات، أشار إلى دواء هذه العلل المهلكات، رحمةً منه على

الضعفاء المستعدّين للخطيّات وترحّمًا على السالكين، فأمَر أن يقول الناس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ليُستخلَصوا من مرض الرياء، وأمَر أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليُستخلَصُوا من مرض الكبر والخيلاء، وأمر أن يقولوا: ﴿اهْدِنَا﴾ ليُستخلَصوا من الضلالات والأهواء. فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حثٌّ على تحصيل الخلوص والعبودية التامة، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارةٌ إلى طلب القوّة والثبات والاستقامة، وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ إشارةٌ إلى طلب علمٍ من عنده وهدايةٍ من لدنه لطفًا منه على وجه الكرامة. فحاصل الآيات أن أمر السلوك لا يُتمَّم أبدًا ولا يكون وسيلةً للنجاة إلا بعد كمال الإخلاص وكمال الجهد وكمال فهم الهدايات، بل كلُّ خادم لا يكون صالحا للخدمات إلا بعد تحقُّق هذه الصفات. مثلاً.. إن كان خادم مخلصا وموصوفا بأوصاف الأمانة والخلوص والعفّة، ولكن كان من الكسالى والوانين القاعدين، وكالضُجَعة النُوَمة، لا من أهل السعي والجهد والجدّ والقوّة، فلا شكّ أنه كَلٌّ على مولاه، ولا يستطيع أن يتّبع هداه ويكون من المطاوعين. وخادم آخر مخلص أمين، ومع ذلك مجاهد وليس بقاعد كالآخرين، ولكنه جَهول لا يفهم هدايات مخدومه، ويُخطئ ذاتَ مرارٍ كالضالين؛ فمن جهله ربما يجترئ على الممنوعات، ويوقع نفسه في المخاطرات والمحظورات، ويبعد عن مرضاة المولى من جهل جاذب من الجهلات، وربما يضيع نفائس المولى ودُرره وجواهره، من كمال جهله وحمقه وسوء فهمه، ويضع الأشياء في غير محلها من

زيغ وهمه، فهذا الخادم أيضا لا يستطيع أن يستحصل مرضاة المخدوم، ويُسقطه جهله كل مرة عن أعين مولاه فيبكي كالمَوقُوم، وكذلك يعيش دائما كالملعون الملوم، ولا يكون من الممدوحين. بل يراه المولى كالمنحوس، الذي لا يأتي بخير في سير، ويخرب بقعته ورحاله وأمواله في كل حين. وأما الخادم المبارك والعبد المتبرك الذي يُرضي مولاه، ولا يترك نكتة من هداه، ويسمع مرحباه، فهو الذي يجمع في نفسه هذه الثلاث سويًّا، ولا يؤذي مولاه بخيانة وحَدْل، ولا يُطَحْطِحه بكسل أو جهل، فيصير عبدًا مرضيًّا. فهذه هي الأشراط الثلاثة للذين يسلكون سبل ربهم مسترشدين. وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارةٌ إلى الشرط الأول، وإلى الشرط الثاني في ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإلى الثالث في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾. فطوبى للذين جمعوا هذه الثلاث ورجعوا إلى ربهم كاملين، وتأدبوا مع ربهم بكل الأدب، وسلكوا بكل شريطة غير قاصرين. فأولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ودخلوا حظيرة القدس آمنين. ولما كانت هذه الشرائط أهم الأمور للذي قصد سبل النور، جعَلها اللهُ الحكيم من أجزاء الدعاء، ليتدبر السالكُ كالعقلاء، وليستبين سبيل الخائنين.

وهذا آخر ما أردنا في هذا الكتاب بفضل رب الأرباب، والحمد لله رب العالمين. والسلام على سيدنا ورسولنا محمد خاتم النبيين. رَبِّ أَمْطِرْ مطرَ السوء على مكذّبيه، واجعلْنا من المنصورين. آمين.